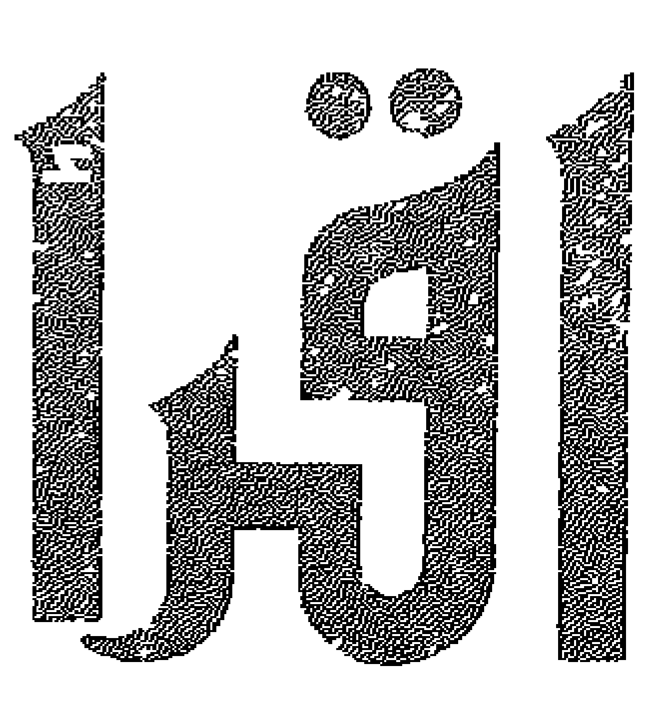
عبد العزيز النعمانى

عشاق المحروسة



سلسلة ثقافية شهرية

اقرأ

[٥٨٣]

عشاق المحروسة

عبد العزيز النعماني

عشاق المحروسة



إن الذين عنوا بإنشاء هذه السلسلة ونشرها ، لم يفكروا إلا فى شىء واحد ، هو نشر الثقافة من حيث هى ثقافة ، لا يريدون إلا أن يقرأ أبناء الشعوب العربية . وأن ينتفعوا ، وأن تدعوهم هذه القراءة إلى الاستزادة من الثقافة ، والطموح إلى حياة عقلية أرقى وأخصب من الحياة العقلية التى نحياها .

طه حسين

الناشر : دار المعارف – ١١١٩ كورنيش النيل – القاهرة ج . م . ع .

مقدّمة

تنتابنى بين الحين والآخر رغبة جارفة فى قطع مسافات طويلة سيرًا على الأقدام ، أقرأ وجوه المارة ، وأشعر من خلال ذلك أننى أقرأ تاريخى ، تاريخ مصر ، بل تاريخ الأمة العربية كلها .

إن كل تجعيدة فى وجه طاعن فى السن إشارة إلى سنين عديدة ، راح فيها أبناء النيل يشيدون مدينة ، ويتخذون من تاريخ العالم ما يكشف عن وجهنا المصرى العربى الأصيل .

وكل انطلاقة من شاب أو فتاة تشير إلى الأمل فى المستقبل ، الذى أرسى ركائزه الآباء قديمًا .

وإذا كانت الحياة فى مصر قد بدأت منذ آلاف السنين ، تأثر الإنسان المصرى خلالها بالظواهر المناخية ، تبعًا للعصور الجيولوجية المختلفة ، فإنه فى جميع المراحل كان يطور مجتمعه ، مصارعًا قسوة الحياة ، بمصرية خالصة ، لم تعتمد على عون خارجى .

ولم ينس عبر رحلة تطوره دورَه فى إجادة العلوم والفنون والآداب ، سواء فى انتمائه الفرعونى ، أو انتمائه العربى الإسلامى ، فى إطار دولة موحدة سياسيًّا ، تدير شئونها حكومة مركزية ، تؤكد قيمة الإنسان .

من هنا كانت فكرة هذا الكتاب ، خاطرة تجول في الذهن . إلى كان التحبيذ من صديق العمر الجميل فاروق شوشة ، فكانت هذه الباكورة ، التى يمكن أن تمتدّ إلى عشرات مثلها .

من مصر كان أحمس طارد الهكسوس .

ومنها خرج صلاح الدين ليحرز أعظم انتصارات العصور الوسطى .

ومنها انطلق فكر العالم الإسلامى وثقافته .

ومنها كان التسامح الدينى ، حيث كان من أول قرارات إبراهيم باشا فى ٥ أغسطس ١٨٣٢ م ، قرار إلغاء جميع الضرائب التى كانت تجبى من الحجاج المسيحيين واليهود ، القاصدين بيت المقدس .

وفى مصر يظل الجامع الأزهر ، القلعة الشامخة أمام كل التيارات الوافدة ، ثقافة لا تزعزعها المحن ، ولا تهزها العواصف .

ومن مصر انطلق صوت عبد الناصر وأنور السادات .

ومنها ينطلق صوت مبارك ، صوت العقل المصرى ، والضمير الوطنى .

ومنها كانت أناشيد شعرائها ، وأنغام فنانيها ، وإبداع مبدعيها .

وفى هذا الوادى الخصيب ، سيظل لنا مع المجد القديم نسب ، ومع الدنيا الجديدة إسهام خلاّق .

عبد العزيز النعمانى

مدخــل
مسئولية الإنسان فى البناء الثقـافى

مسئولية الإنسان فى البناء الثقافى

يرى الإنسان نفسه كائنًا حيًّا متميزًا عن سائر الكائنات ؛ وذلك لتفرده بالإدراك ، الذى يحقق له الثقافة بمفهومها الشامل ، وهذا المفهوم الشامل للثقافة في تعريف المشتغلين بعلوم الإنسان ، هو نتاج تفاعل الإنسان — ككائن حى — مع البيئة المحيطة به ، وهذه البيئة تضم — فيما تضم — الأنهار والجبال ، والمناخ والإشعاعات ، وكذلك المواد والثروات من نبات وحيوان وإنسان .

وعلى هذا فإن مفهوم الثقافة فى هذا الإطار يشتمل نوع الملبس والمسكن ، إلى جانب العلوم والفنون والآداب ، وطبقًا لهذه المعايير فإننا نصف ثقافة ما بأنها بدائية ، أو رفيعة .

وهنا يطرح هذا السؤال نفسه : ما هى مسئولية الإنسان فى البناء الثقافى ؟

إن كل الكائنات الحية تتفاعل مع بيئتها ، لكنها لا تنتج ثقافة كهذه التى ينتجها الإنسان ، وذلك لما للإنسان من ملكات عقلية خاصة ، تجعله قادرًا على اختزان الخبرات ، واستدعائها من الذاكرة لدى الحاجة إليها .

ولكن .. هل وجد الإنسان على هذه الأرض مكتمل الخبرات ؟ بالطبع لا .. فقد مرت طاقاته الإدراكية بمراحل متنوعة ، منذ وجد على الأرض حتى اليوم ، لقد كان ربط الإنسان بين الأحداث والظواهر المحسوسة بدائيًا أول نشأته ، وهذا ما هيأ السبيل لظهور الخرافة ، ثم بدأ الإنسان

يتحقق من المحسوسات ، ويربط بينها باستخدام مجموعة من القواعد التى تحكم النشاط العقلى ، وتقربه من الواقع ، وهو ما يسمى بالمنطق العقلى ، ثم كان التجريب المحكم ، واستخدام الرموز فى التعبير عن الأفكار ، ومن خلال تجارب آلاف السنين زاد إدراك الإنسان ، ففهم نفسه ، وتدبر الطبيعة من حوله ، لقد استخدم إدراكه فى كل ذلك ، فنظم تجاربه الحسية ، ورتبها فى المكان والزمان .

وهناك جانب آخر من النشاط العقلى الإنسانى وهو الفهم ، إنه الجانب الذى يدرك الإنسان من خلاله دوره فى الكون ، ودوره فى بناء مجتمعه ، إن الإنسان يمثل حلقة فى سلسلة نوعه ، وهو أيضا نتاج السلف ، كما أنه ينتج الخلف ، وإذا كانت حياة الإنسان محدودة كفرد ، فإنها ممتدة كنوع ، وهذا الفهم يدفع الإنسان إلى اعتناق مجموعة من القيم الثقافية من خلال ما سبق أن طرحناه ، وهذه القيم مثل العدل والإحسان ، والتضحية والنجدة ، والرحمة والرفق ، والسماحة والطهارة والنزاهة ... إلخ .

ولابد أن يمارسها الإنسان لذاتها ، حتى ولو لم يكن لها فائدة ملموسة ، يمارسها الإنسان بدافع من ضميره ، حتى وإن غاب الرقباء والمشاهدون .

ومسئولية الإنسان هنا ضرورة فى البناء الثقافى ؛ لأن له دورًا فى الوجود الإنسانى ، وهذا الدور هو جوهر ثقافته ، هذا الجوهر الذى

يجعله يتفاعل سلميا مع مداركه ومعارفه وقيمه الرفيعة ، وهنا تكمن مسئولية الإنسان فى البناء الثقافى .

معركة الأجيال بين القديم والجديد :

ويصنع الإنسان ثقافته ، ويتغير الزمن ، فتدور المعارك بين القديم والجديد ، وهى معارك متكررة ومستمرة ، فجديد اليوم قديم الغد وهكذا .

وتزداد حدة هذا الصراع فى مجال الأدب أكثر من أى شىء آخر ، أو بمعنى آخر يدور هذا الصراع بين مختلف الفنون الإبداعية ، وأقرب ما نراه من ذلك ما يدور من صراع حول الأغنية الجديدة والأغنية القديمة مثلاً .

أما فى مجال الأدب فإن ذوى المواهب الرشيدة من رجاله يشعرون بعدم كفاية أدبهم للاستجابة لحاجات عصرهم ، فيمل الكتاب والشعراء المألوف من تقاليد أدبهم .

وهذا الملال هو سبب خروجهم من نطاق أدبهم القومى ، طلبًا للجديد من الآداب الأخرى ، ويتمثل هذا فى شبه ثورة على القديم ، وحرص على إكماله فى وقت واحد . يقول « جوته » : ينتهى كل أدب إلى الضيق بنفسه ، إذا لم تأت إليه نفائس الآداب الأخرى لتجدده ، وتبعث الحياة فيما يلى منه .

ويدعو المجددون ، أو دعاة التجديد إلى النظر فى قيمة تراثهم الأدبى على ضوء جديد ، وفى أثر ذلك تقوم — عادة — المعركة المألوفة فى كل

عصر حى ناهض بين أولئكم المجددين – من جانب – ودعاة المحافظة على القديم ، الواقفين عنده ، لا يتجاوزون حدوده – من جانب آخر .

يزعم دعاة القديم أن فى الجديد خطرًا على الموروث من أدبهم ، وقضاء على تقاليدهم ، بل إنهم يرون أن الإفادة من المصنوعات والمواد التجارية العالمية من شأنه أن يحقق الفائدة ، أما الآداب والفنون فهى وطنية محضة ، وفى نقلها قضاء عليها ، وخطر على قومية من تنقل إليهم .

وهل يمثل ذلك – حقيقة – خطرًا على تراثنا ؟

لا خطر فى ذلك على القيم من تراثنا ، ثم إن من واجبنا أن نساير الركب العالمى ، بأن نظل على وعى كامل بما فيه نماء ذلك التراث الفنى والفكرى .

إن فى طبيعة كل أدب ، وفى خصائص أهل كل أدب ، وتقاليدهم ما يقف حاجزًا ضد ما لا يتفق مع طاقاتهم الحيوية والفنية ، لقد تأثرنا بالكلاسيكية مثلاً ، فى الوقت الذى كانت فيه قد ماتت فى الآداب الأوروبية ؛ لأنها كانت تتفق فى ذلك الوقت مع القائم من تقاليدنا وأفكارنا ؛ لأن العبارات الفنية والفكرية الرشيدة مثل الاختراعات العلمية المفيدة ، كلاهما ميراث مشترك ، يمثل قيمة للإنسانية جمعاء .

إن المتعلقين بالقديم يزعمون حرصهم عليه ، وينكرون على الجديد كل قيمة ، ودعاة التجديد أيضًا ينكرون كل فضل للقديم ، وينبغى أن تكون أسلحة الدفاع فنية عقلية ، كما أن المغالاة من دعاة التجديد غير مطلوبة ، إذ المطلوب الاعتدال فى الدعوة واللهجة ، ومعرفة فضل القديم

فى عصره ، ويتجلى – آنذاك – الحرص على إغناء القديم الموروث بالجديد المكتسب .

إن الجديد دائمًا – أمارة من أمارات الحياة ، ولن ينتصر إلا على يد الراشدين من دعاته ، أولئكم الذين هضموا التراث ، ويعملون على غربلة الجديد للاستفادة مما يناسب بيئتنا ، وحضارتنا ، وأملنا فى الحياة .

الثقافة والوحدة الوطنية :

ومهما اتخذت الثقافة من ألوان ، فإنها فى النهاية لابد أن تهدف إلى خدمة الوحدة الوطنية ، تلك التى تجمع أبناء الوطن بالداخل أو بالخارج فى بوتقة واحدة ، تهدف إلى الارتقاء بهذه الرقعة من الأرض ، المسماة بالوطن ، من خلال إنسانها ، صانع الحياة عليها .

فهذا المهاجر خارج الوطن ، لا يترك مصريته بالداخل ، بل يحملها معه قدرًا ومصيرًا ، إن شعورًا يزداد بها عمقا ، ويصبح بها أكثر تمسكًا واعتدادًا ، إنه يردد مع الزعيم مصطفى كامل : « لو لم أكن مصريا لوددت أن أكون مصريًا » ، كما أنه يردد مع مبارك : « مصر أولاً » .

إن الوطن مسافر فنيا دون إرادتنا ، ولسنا نحن الذين نسافر بعيدًا عنه ، ونحن .. من نحن ؟ نحن أبناء هذا الوطن بكل طوائفه ، هؤلاء الأبناء الذين ورثوا تاريخ وطنهم ، وهم اليوم صناع مستقبله .

إن الأفراد الذين ينتمون إلى الوطن ثقافة وتاريخًا ، يختلفون فيما بينهم ، اختلاف التكامل ، لا اختلاف التنافر ، تمامًا كالصورة

تحمل كثيرًا من الألوان المتضاربة ، ولكنها – فى النهاية – تمثل الانسياب فى شكل الصورة العام .

وليس جديدًا أن يختلف أفراد الأسرة الواحدة ، بل والوطن الواحد ، تشهد على ذلك كتابات مؤرخينا ، بدءًا بالمقريزى ، وانتهاء بالجبرتى ، مرورًا بابن إياس .. إنه السياق التاريخى لتطور الأمة ، الذى يشهد فى النهاية بأن وحدتها الوطنية لا تذوب أبدًا فى أفكار وافدة طارئة .

إن الممارسات الغاشمة لحكم الغرباء ، ونقص الوعى بتاريخ هذه الأمة ، يعكس – فى بعض الأحيان – فهمًا خاطئًا لمفهوم الوطن والمواطنة ، إنها ثقافة التقطيع والتجزىء ، التى تخلق نظرة أحادية للشخصية المصرية ، بل الشخصية العربية .

إن مثل هذه الثقافة تنظر إلى تاريخ الوطن وكأنه سلسلة من الحقب المنفصلة عن بعضها البعض ، وكل منها مقطوع الصلة بما يسبقه ، ولا تأثير لأى منها على ما يعقبه .

إن مثل هذه الثقافة تهمل وضعية الاستمرار والتواصل فى تاريخنا ، تلك التى تقوم على الخصائص الثابتة لموقع مصر كجزء من الوطن العربى ، أرضًا ومناخًا ، نهرًا وبحرًا وبشرًا ، إنها ثقافة اللغة الواحدة ، والممارسات اليومية الواحدة .

إن الثقافة الأصيلة تختزل تاريخنا فى حقبة واحدة ، ليصبح شأنه بذلك شأن أقدم الأمم وأعرقها ، فالشخصية المصرية مثلاً نشأت وتطورت

عبر مئات القرون ، محصلة لحضارات مختلفة ، فرعونية ويونانية وقبطية وإسلامية .

لقد تمثلت الأمة كل هذه الحضارات ، وامتصتها ، ومزجتها بخصوصيتها المتميزة ، لتكون – بعد ذلك – شخصية ثقافية مركبة ، متعددة الأبعاد ، ولكن فى وحدة وتكامل غير منقوصين .

إن تعدد الأبعاد فى الشخصية المصرية ، هو سر بقائها ، وسر قدرتها على تجاوز الأزمات . وهذا التعدد ينبغى أن تكشف عنه مناهج التعليم ، وكتابات المثقفين ، وأعمال الفنانين التشكيليين ، لأنها ثقافة الوحدة الوطنية ، التى تصون الشخصية المصرية من وطأة الذوبان فى القوالب والأنماط العالمية ، التى تحاول فرضها علينا تكنولوجيا الإعلام والمعلومات المعاصرة ؛ إنه لابد أن تكون لنا ثقافة مستمدة من تجربتنا التاريخية الممتدة ، ثقافة تؤسس أدبيات الحوار ، الذى تفرزه الطبيعة السمحة ، ثقافة ثرية مستوحاة مما بشرت به المسيحية من سلوك قائم على المحبة ، ومستلهمة مما جاء به الإسلام من عقلانية رشيدة لدى النظر للأمور .

ثقافة الوطن الواحد :

نظر آباؤنا الأوائل إلى الدنيا بمنظور متفهم ، فاتجهوا إلى نقل حضارتهم ، والاستفادة من حضارة الغير ؛ لذا كانت حصيلة الترجمة كبيرة ، حيث أقبل العلماء على الدرس والتحليل ، وتدوين الملحوظات ، وعمل التجارب والقياسات بطريقة علمية . تقول المستشرقة الألمانية « زيغريد هونكه » فى كتابها شمس العرب تسطع على الغرب » :

إن الحضارة العربية المبتكرة لم تأخذ عن الحضارات الإغريقية أو الحضارة الهندية ، إلا بمقدار ما أخذ أرسطاطاليس أو فيثاغورث ، لقد طور العرب ما أخذوه عن الحضارات الأخرى بتجاربهم وأبحاثهم العلمية ، فأثبتوا الصحيح منها ، وعدلوا الخطأ فى بعضها ، مع وضع بديل عنه . وتأثر بهم – فيما بعد – علماء الغرب ومفكروه أمثال : روجر بيكون ، ماجنوس ، ليوناردو دافنشى ، جاليليو وغيرهم .

إن الثقافة تخلق من العالم كله وطنًا واحدًا ، هو الوطن الثقافى ؛ ولذا كانت المراكز العلمية العربية مقصدًا للعلماء من الشرق والغرب ، فى الوقت الذى كان الغرب فيه يعانى تخلفًا فكريًّا واقتصاديًّا ، كاد يشعل الثورة فى هذه البلاد ضد التعصب الدينى .

عندما فتح العرب أسبانيا حولوها خلال مائتى عام من بلد متخلف ، إلى بلد ارتقت فيه العلوم والفنون والآداب . وعندما أحس المتعصبون تأثير الحضارة العربية ، نادوا بأن العرب سوف يقضون على المسيحية ؛ وتلك دعوى باطلة لأن نور الحقيقة ظل يطاردهم فى كل مكان ، إن الأديرة المسيحية كادت تنمحى فى سوريا فى عصر الحكم المسيحى ، بينما وصلت ذروة نشاطها فى العصر الإسلامى ، حيث أصبحت مراكز علمية ، يجتمع فيها المسلم والمسيحى واليهودى حول أرفف المكتبات ، يخدمون فى بناء صرح العلم ، ولم يحرم على العربى أن يدخل مدارس غير المسلمين ، وينهل من معارفها . كما أن آلاف الأسرى من الأوربيين عادوا من قرطبة ينقلون إلى أوربا ما شاهدوه فى المراكز الثقافية التى أقامها العرب .

لقد أخذت الحملات الصليبية أبحاث العلماء وابتكاراتهم وفكرهم ، وأحرقت آلاف المكتبات ، ونهبت خزائن الكتب . ووقف العرب مذهولين أمام الفكر الغوغائى ، الذى يهدم صرح حضارة الإنسان ، ففى عام ٣٨١ م استصدر البطريرك « تيُوفِيلَسْ » من القيصر « ثيودوسيوس » إذنًا بتخريب « السيرابّيُون » أكبر ما تبقى من الأكاديميات العلمية ، وأمر بإشعال النار فى مكتبة « البلانين » .

إن ما قام به العرب فى البلاد المفتوحة ليدل على نظرة إنسانية واسعة . نظرةٍ تعتبر الإنسان أخا الإنسان فى أى مكان . إنها الأخوة الإنسانية ، تجمعها ثقافة البشرية كلها ؛ لأن الثقافة تراث العالم ، الذى يحدث النهضة والتطور .

لم يكن لدى العرب تعصب دينى ، بل ابتنوا دولتهم على التسامح مصداقًا لتعاليم دينهم ؛ ولم يهدموا صرح المعرفة الإنسانية لأنهم بناة حضارة للبشرية كلها ، عاشوا فى وطنهم تجمعهم وحدة وطنية اجتماعية ، ووحدة وطنية ثقافية .

لقد ترجموا الحياة من لغة جامدة إلى لغة حية .

الاغتراب التكنولوجى :

أمام الثقافة الموحدة ، فى الوطن الواحد ، كان لابد أن تكون هناك جهود ناضجة ، أمام الثقافة المتنوعة المتلاحقة فى هذا العصر ، فقد تعددت مصادرها ، وتنوعت منابعها ، وأصبح من هذه المصادر (ثقافة التكنولوجيا) إلى جانب الكتاب والصحيفة والمجلة ، ووسائل الإعلام

جميعًا مرئية ومسموعة ، لقد جاءت التكنولوجيا إلى عالمنا المعاصر لتمثل شيئًا جديدًا ، يتدفق بالحيوية والتطور ، وتابع الكتاب والمفكرون رصد حركة التكنولوجيا ، ودرسوا ملامحها وآثارها فى الحاضر والمستقبل .

ومن هذه المتابعات كتاب « صدمة المستقبل » الذى كتبه « الفين توفلر » سنة ١٩٧٠ ، لقد كان فى ذهن هذا الكاتب ما يلاقيه الإنسان العادى فى مجتمعات الدول المتقدمة من وطأة تكنولوجيات عاتية ، فلقد وقع هذا الإنسان تحت مجموعة من الضغوط النفسية والعصبية والفسيولوجية ، ولقد أتت هذه الضغوط من محاولة إنسان العصر ملاحقة التغيرات المتتابعة لتكنولوجيات تتبدل وتتغير فى إيقاع سريع ، يفوق قدرة الإنسان على التلقى والاستيعاب .

وتتنوع آثار التكنولوجيات ، وتتجلى على المستويات كافة ، بدءًا من بطاقات الائتمان الممغنطة ، التى يقضى بها الإنسان حاجاته اليومية ، إنها بطاقات يتحول الاقتصاد بواسطتها من اقتصاد يقوم على النقود ، إلى ما ترمز إليه تلك البطاقات من نقود ، وكذلك فيض البث الإعلامى ، والتنوع والتعدد للمنتجات المادية المصاحبة لتلك التكنولوجيات .

إن الإنسان يجد نفسه فى مواجهة إجبارية مع بيئة معقدة ، مليئة برموز التكنولوجيا المعاصرة ، بمنتجاتها المادية والذهنية التى تفرز مناهج فكرية جديدة ، ونظمًا علمية مستحدثة . إنها تلقى على عاتق الإنسان عبء الإلمام بها ، والانتقاء منها ، وهو ما يُحْدث تحميلاً زائدًا على الإنسان ، كما يقال فى المصطلحات الكهربية .

إنه عندئذ يكون غير قادر على التفاعل مع معطيات البيئة التكنولوجية الجديدة ، لافتقاده الأدوات الذهنية والعقلية الضرورية لإحداث هذا التفاعل ، كما أنه يكون غير قادر على التواصل مع رموزها ، لجهله دلالات تلك الرموز ، وهنا يحدث « الاغتراب التكنولوجى » .

وما موقف الإنسان من هذا الاغتراب التكنولوجى ؟

يلجأ الإنسان إلى عديد من الحيل الإدراكية والعقلية ، كالتبسيط المُخِلّ ، أو الرؤية الاختزالية للأمور ، أو النظرة الجزئية والتجزيئية للواقع ، أو إيجاد عالم بديل بسيط ، يستطيع التعامل مع معطياته .

وما موقفنا نحن من هذه البيئة التكنولوجية ومن آثارها ؟

إن موقفنا يحتاج إلى مواجهة جريئة ، وصريحة ، وصارمة ، أو قل إلى تنوير جديد . نعم .. إلى تنوير جديد . وتحضرنى هنا قصة رفاعة الطهطاوى عندما ذهب إلى باريس منذ أكثر من مائة وخمسين سنة ، ليؤمّ أولى بعثات محمد علي إلى بلاد الفرنجة ، لقد لقى حضارة متقدمة ، فلم يهرُب إلى ماض ولى ، رغم فهمه واستيعابه ، ولم يخلق عالما وهميًا لقد أبى إلا المواجهة ، وعاد ليُرودَ أُمته إلى التنوير ، حقًا إننا اليوم فى حاجة إلى حركة تنوير جديدة ، تتبنى منطق المواجهة الجريئة والصريحة والصارمة .

إنها مواجهة مع التراث ، حتى لا نكون أُمة مغتربة فى مجتمع المستقبل .

الفصـل الأول

الإنسـان المصـرى والإبـداع

إبداعات مصرية

اختراع الكتابة :

يعد اختراع الكتابة واحدًا من أعظم الاختراعات التى تمخض عنها العقل البشرى ، فباختراع الكتابة يُؤَرَّخ للتاريخ الإنسانى ، فعصور ما قبل التاريخ هى تلك العصور التى لم تكن بها كتابة يكتب بها تاريخ ذلك العصر .

ويختلف العلماء فى أصل الكتابة ، ومكان نشأتها ، وإن كانوا يتفقون على أن نشأة الكتابة كانت فى مدن وديان الأنهار العظيمة ، مثل مدينة (وادى النيل) ، ومدينة ما بين النهرين (العراق) .

فى حوالى القرن الأربعين قبل الميلاد ، ظهرت الكتابة المصرية القديمة فى طورها الأول ، وهو ما يعرف باسم الكتابة الهيروغليفية ، ويجدر بنا أن نصحح خطأً شائعًا يقع فيه كثير من الناس ، عندما يتكلمون عن اللغة الهيروغليفية ، إذ إنه لا توجد لغة بهذا الاسم ، حيث إن اللغة المصرية القديمة كانت تُكتَبُ بطرق عدة ، منها طريقة الكتابة بالخط الهيروغليفى ، أو طريقة الكتابة بالأبجدية القبطية .

وكلمة هيروغليفى كلمة يونانية ، لم ينطق بها المصريون الأوائل ، ولكنها تسمية سماها اليونانيون لهذه الطريقة من الكتابة ، وتعنى باليونانية (الخط المقدس) ، وعندما ابتدأ المصريون الكتابة بها ، كانت تستخدم فى الكتابة على المسطحات الكبيرة ، مثل جدران المعابد ، واللوحات

الحجرية والخشبية . وقد كُتِبَتْ بها بعض النصوص الدينية على أوراق البردى ، وهى تكتب من أعلى إلى أسفل ، أو من أسفل إلى أعلى وفى بعض الأحيان تكتب من اليمين إلى اليسار ، أو من اليسار إلى اليمين . والكتابة الهيروغليفية كتابة تصويرية صوتية ، بمعنى أنها تستخدم الصور للتعبير عن الأصوات ، وقد استمدت رموزها وعلاماتها من البيئة المصرية ، أهلها وحيوانها وطيرها ونباتها وجمادها ، وتدرجت هذه الطريقة مع محاولات الإنسان المصرى فى الكتابة ، فيرسم رأسا عليه إناء ليعبِّر عن كلمة (يحمل) على سبيل المثال .. وهكذا . وعندما أصبحت الكتابة الهيروغليفية لا تفى بمطالب التغيير ، تطورت إلى الكتابة الهيراطيقية ، وهى كلمة يونانية أيضا ، تعنى الكتابة الدينية أو الكهنوتية ، وقد استخدمت فى كتابة الرسائل ، والنصوص الأدبية ، وانتشر استعمالها ابتداء من عصر الدولة الوسطى ، وتطور هذا النظام فى الكتابة ، إلى ما يُعْرَفُ باسم الكتابة الديموطيقية .

ولما بدأت المسيحية تحل محل الفرعونية ، ظهرت الكتابة القبطية ، كآخر مظهر من مظاهر تطوير كتابة اللغة المصرية القديمة .

ومن الأبجدية المصرية القديمة ، تطورت الأبجدية الحديثة فى العالم ، ففى عام ١٩٠٥ م عُثِرَ بالقرب من مناجم الفيروز فى شبه جزيرة سيناء ، على عدد من النقوش ، ربما كانت لغة سامية .

ويسود الاعتقاد لدى البعض بأن هذه الأبجدية ، هى أصل الحروف الهجائية فى اللغات المختلفة .

إن التغييرات الحالية فى الحروف المقفلة والمتحركة فى لهجات اللغة المصرية الدارجة الحالية ، هى بعينها الحروف التى كانت موجودة فى اللهجات المصرية القديمة .

إن وجه مصر الحضارى مشرق فى كل مناشط الحياة ، وعلينا ألا نجعل من هذه الكنوز عائقًا عن الانطلاق نحو المستقبل ، فلابد أن يكون هذا دافعًا نحو صنع الحياة ، وتطويرها إلى الأحسن .

الأدب فى مصر القديمة :

ظل كثيرون ممن لم يدرسوا العلوم المصرية القديمة لا يعرفون عن مصر إلا أنها بلد المومياوات ، وأبى الهول والأهرام ، وتوت عنخ آمون . وعندما ظهر كتاب الأستاذ « ماكس بيبر » عن الأدب المصرى القديم ، دهشوا لدى قراءة عنوانه ، وسأله أحدهم مستغربًا :

ألا يوجد لمصر القديمة أدب قومى كذلك الأدب اليونانى واللاتينى والألمانى ؟

وقد كان رده عليهم كتابه المختصر « فى الأدب المصرى القديم » ، إننا لا نستغرب من أجنبى عن مصر أن يسأل هذا السؤال ، إذا علمنا أن السواد الأعظم من المصريين المتعلمين - يجهلون أمر أدبهم القديم ، بل ويعتقدون أن أقدم أدب فى العالم هو الأدب الإغريقى ولكننا نؤكد لهؤلاء المتعلمين ، وأشياعهم ، أن لمصر أدبًا قوميًا قديمًا ، وأنه أقدم من الأدب الإغريقى .

لا شك أن مصر أول بلد ربَّى فى نفوس أبنائه روحًا أدبية خالصة للأدب ، فقد وضع المصرى المؤلفات الأدبية البحتة منذ ألفى سنة قبل الميلاد ، ولم يكن يسعى أن يكسب من وراء ذلك شهرة سياسية ، أو تأييدًا دينيًا ، أو نفعًا تجاريًا ، فقد كان يريد الأدب لذاته ، غذاء للروح ، وإشباعا للنفس الصافية ، بحلاوة التعبير ، وسمو المعنى .

لقد كانوا مهتمين بتنمية لغتهم ، وصقلها ؛ لأنها غنية بالاستعارات والتشبيهات ، وهى لهذا لغة مثقفة مترفة ، وليس من شك فى أن الذين حملوا مشاعل الأدب المصرى كانوا من المتعلمين الذين يحترفون الكتابة ، وليس معنى هذا أنهم خلقوه خلقًا ، أو أنهم هم الذين ابتدعوه فى أرض الفراعنة ابتداعًا ، وإنما هم الذين ارتقوا به إلى حالة أكثر افتنانًا .

إن الطبيعة التى أوحت للحمام بالهديل ، وإلى العصفور بالشقشقة ، وإلى الهزار بالتغريد ، لابد دافعة الإنسان إلى محاكاة هذه المخلوقات ؛ لهذا وجدنا الغناء ، وهو فرع من الأدب – قبل نهضة الأدب فى مصر القديمة ، كان هذا الغناء بسيطًا لا تعقيد فيه ، وهو ما ظل روحًا لأغنية الفلاح المصرى الآن ، أثناء دوران ساقيته ، أو سفره فى النيل بسفينته . فقد أوحت الطبيعة للفلاح والبحّار بما يقولان ، فانطلقا يغردان على تلك الصورة البسيطة المحببة .

لقد وجد المصريون فى الغناء راحة ومتعة ، أخذها الأبناء عن الآباء ، وهى خير معوان على مداومة العمل الشاق ، وتذليل ما صعُب منه ، إن الفلاح والصانع فى مصر القديمة كانا يستعينان على عملهما الشاق

بغنائهما ، فكان الغناء جزءا من العمل ؛ ولذا كان المثّال يضيف إلى تمثاله الأغنية التى تناسبه ، أغنية للعمل ، وقد تكون أغنية للعواطف ، فهذا شاعرهم يقول :

إن حب حبيبى يأسر كل من يمشى على الطريق
إنه شاب متميز ، منقطع النظير
تتجلى فى سلوكه كل الفضائل
لقد رنا إلىّ حينما مررت
فطار قلبى من الفرح
لأن نظرته كانت لى وحدى

والمصرى القديم الذى ردّد الأغنية ، أبدع القصة ، وأبدع الشعر ، وعرف القصة القصيرة ، قبل أن تضىء دنيا الإبداع كلمةٌ مكتوبةٌ .

أدب النيـل بين مصر القـديمـة ومصر الجـديـدة :

عدَّ المصريون القدماء النيل إلها ، إلا أنه مختلف عن الآلهة الأخرى ، فى أنه لم تكن له عبادة منظّمه متّبعة ؛ ولذلك كتبوا « عبادة النيل » وهى أنشودة تختلف فى تركيبها عن الأناشيد القديمة للآلهة الأخرى .

ولابد أنها أنشئت للاحتفال بالفيضان ، الذى كان يقوم – حسبما جاء فى الأنشودة – فى وقت كانت فيه مدينة طيبة يحكمها حاكم ، وليس فرعونًا ، فمن المحتمل إذن أن يكون ذلك قد حدث فى أواخر عهد الهكسوس ، حيث كانت البلاد مقسمة بين الهكسوس والمصريين ، ولم تتألف منهما وحدة تدير شئون البلاد ، إلا أن المصريين طردوا

المكسوس فيما بعد ، ووحّدوا الدولة ، وأقاموا أركانها وماذا قال شاعر « أنشودة النيل » ؟ قال :

الحمد لك أيها النيل
إنك تأتى من الأرض نابعًا فياضًا
لتطعم مصر
إنك تروى المراعى
وتعطى شرابك للأماكن المقفرة
إنك صانع الشعير ، وخالق القمح
حتى تتمكن المعابد من إقامة الأعياد

ثم قال أيضا :

أنت أيها النور الآتى من الظلام
يا سمن الماشية
يا من تنمّى الأشجار ، فتكون منها السفن
إذ لا سفن من الأحجار

لقد عاش المصريون القدماء حياة فكرية متقدمة ، بالنسبة للعالم المظلم آنذاك ، إنهم يعترفون بالفضل لواهب المصلحة المباشرة ، لواهب النور ، والدفء ، والحياة . وتأتيهم الحياة من الشمس ، ومن النيل . يقول شاعرهم :

يأيها الإله الأحد
الذى لا يوجد بجانبه شأن لأحد

أنت تخلق النيل فى العالم السفلى
وتأتى به كما تشاء
ليحفظ أهل مصر أحياء
فقد خلقتهم لنفسك
وصُغْت نيلاً فى السماء
حينما يتنزل لهم يصنع أمواجًا فوق الجبال
فيروى حقولهم فى المدن

لقد كان الشعر ترنيمة المصرى القديم ، وكان الخيال وجهته إلى التأثير ، ولكن ماذا عن أدب النيل فى مصر الجديدة ؟

لقد ظل تأثير النيل على الأدباء والشعراء مستمرًا ، ينعكس على أعمالهم الأدبية جميعًا ، من قصة ومسرحية وشعر ، فبينما يترنم شاعر السودان بالنيل ، يصدح شاعر مصر مرددًا أحلى الأنغام لهذا النيل ؛ لأن مصر هبة النيل كما قال « هيرودوت » المؤرخ الشهير .

يقول أمير الشعراء أحمد شوقى :

من أى عهد فى القرى تتدفق ... وبأى كفٍّ فى المدائن تغدق
ومن السماء نزلت أم فُجِّرْت من ... عليا الجنان جداولاً تترقرق

وهم — أى المصريون — حين يواجهون موقفًا شديدًا يتجهون إلى النيل ، فكأن عنده الخلاص . يقول شاعر النيل حافظ إبراهيم من قصيدته فى « غلاء الأسعار » :

أيها النيل ! كيف نُمْسى عطاشًا في بلاد روَّيت فيهـا الأنَاما
يَرِدُ الوَاغِلُ الغـريبُ فَيَرْوَى وبَنوك الكرامُ تشكو الأُوَاما

ويقول شوقى :

لو أن مخلوقًا يُؤَلَّهُ لـم تكن لِسِوَاك مرتبةُ الألوهـة تُخْلَق
في كل عـام دُرَّةٌ تُلْقَى بلا ثمنٍ إليك ، وحُرَّةٍ لا تُصْدَق
زُفَّتْ إلى مـلكِ الملوكِ ، يحثُّها دينٌ ، ويدفعُها هوى وتشوُّقُ

إن الشعراء يتغنون بالماضى ، اعترافًا بفضل الآباء ، ويبدعون فى الحاضر ، حتى تمتد بهم الحياة نحو الأفضل والأحسن ، ثم إن الأجيال لتعاقب ، وكل جيل يترك الآخر من الأبناء أمانة فى يد النيل ، يقول شوقى :

مما يُحَمِّلُنا الهـوى لك أفـرخٌ سنطيرُ عنها ، وهى عندك تُرْزَقُ
تَهفُو إليهـم فى التراب قلوبُنا وتكاد فيـه بغير عِرْقٍ تَخْفِقُ
تُرْجَى لهـم ، والله جـل جلاله مِنَّا ومنك بهـم أبَرُّ وأَرْفَـقُ

قياس الزمن .. إبداع مصرى :

إن الإنسان الذى مُنِحَ القدرة على الإبداع ، لابد أن يكون الزمن جزءًا من تأملاته ، فالزمن بُرمَّتِه امتداد طويل ، ولكنه يستوعب الليل والنهار ، اللذين يتكرران ، ومن هذا التكرار يكون التفكير فى اختيار وحدة للقياس ، وتسمية لهذا القياس .

ويرجع كثير من الفضل فى معرفة وقياس الزمن إلى مجهود المصريين الأوائل ، وابتكار التقويم الزمنى جزء من إبداعهم الفكرى ، لقد راح المصريون فى عصر ما قبل الأسرات الأولى يجدُّون فى البحث عن وسيلة لقياس الزمن ، هذا الشيء المعنوى غير الملموس ، فوجدوا أن أسهل وسيلة لذلك قياسه بحادث منتظم التكرار ، فكان الليل والنهار وسيلتهم فى ذلك ، ولم يكن الليل والنهار للصحو والسُّبات فحسب ، بل كانا أيضا ضمن المفردات التى تدخل فى إبداعاتهم الأدبية ، والشعرية منها على وجه الخصوص ، كما كان لفظ القمر والشمس والأرض ضمن تلك المفردات ، فتغيُّر أوجه القمر ، وعلاقة الشمس بالأرض من حيث قربُها وبُعْدُها ، وتغير مواقع النجوم ، وغير ذلك ، كلها كانت مفردات الحياة ، معاشها ، وأدبها .

لقد كانت مصر أول دولة أخذت بالتقويم الشمسى أساسًا لحساب الزمن ، وهو التقويم السارى حاليا ، حيث إن معظم دول العالم القديم كانت تسير على التقويم القمرى ، ولقد كان فيضان النيل ، وارتباط حياة الناس به ، داعيًا إلى البحث عن ظاهرة طبيعية يتخذون منها بداية للسنة الزمنية ، وتتفق فى الوقت نفسه مع طبيعة النيل .

ولقد وجدوا ذلك فى ظهور نجم الشِّعْرَى اليمانية ، والذى يوافق قرب فيضان النيل ، فاتخذوا من بداية ظهور هذا النجم دورة سنوية ، تتفق مع دورة فيضان النيل .

وقد قسَّم المصريون الأوائل السنة إلى ثلاثة فصول :

الفصل الأول (إخْت) أى الفيضان ، ويقابل الأشهر من يوليو إلى أكتوبر ، والفصل الثانى (بِرْت) أى الإنبات . ويقابل الأشهر من نوفمبر إلى فبراير ، والفصل الثالث (شِمو) أى التحاريق . ويقابل الأشهر من مارس إلى يونيو .

. . وكان كل فصل من هذه الفصول يتكون من أربعة أشهر ، كل شهر ثلاثون يومًا ، أضافوا إليها خمسة أيام أسموها النسىء . كما قسم المصريون اليوم إلى أربع وعشرين ساعة ، على أساس أن النهار اثنتا عشرة ساعة ، والليل مثلُها ، ولمعرفة الساعة ليلاً أو نهارًا ، اخترع المصريون أنواعًا مختلفة من المزاول ، وهى آلات لمعرفة ساعات النهار بواسطة الظل .

كما اخترع المصريون الساعات المائية ، والتى كانت تستخدم داخل المنازل ، فى أوقات عدم شروق الشمس .

وعندما جاء حكم الرومان ، بعد القضاء على حكم البطالمة فى مصر ، سارع المصريون القدماء باقتراح تعديل التقويم ؛ لتغطية الفرق بين السنة الشمسية الحقيقية ، والسنة المصرية القديمة ، وذلك بزيادة يوم كل أربع سنوات على أيام السنة ، لتصبح ٣٦٦ يومًا ، وذلك بأن تصبح أيام النسىء الخمسة ستة أيام ، وسُمِّيت تلك السنة بالسنة الكبيسة .

ثم قام القيصر – فى ذلك الوقت – بإدخال التقويم المصرى القديم – بعد تعديله – إلى الإمبراطورية الرومانية ، وعلى أساسه بُنِىَ التقويم المعمول به حاليًا ، والمسمى بتقويم يوليوس أو الجريجورى .

.. هذه حضارتك القديمة ، أبدعتها عقول آبائك الأوائل .

.. وهذه حضارتك الحالية ، تنتظر أن تستمر في بذل الجهد ، والشعور بالانتماء .

عاشق المحروسة :

كانت مصر تعيش فى ليل طويل ، إبان فترة الاحتلال الإنجليزى الذى بدأ في عام ١٨٨٢ م ، ولأن الحرية فى دم كل مصرى ، صونًا لوطن يملك حضارة ضاربة فى أعماق التاريخ ، ولأن حب الوطن عقيدة ، فهو من الإيمان ، كان عشق هذا الوطن .

ومصر الولَّادة لن تعقم أبدًا ، إنها - دائما - تلد عاشقيها ، ترضعهم حبها مع ساعات النشأة الأولى ، فيظلون على ولائهم لها . ومصر المحروسة عملاق دائمًا ، فيما تعطى ، وفيما تفعل ، وكيف لا وقد ورد ذكرها فى حوالى ثلاثين آية من القرآن الكريم ، وقال رسول الله ﷺ : « إذا فتح الله عليكم مصر ، فاتخذوا منها جندًا كثيفًا ، فذلك الجند خير أجناد الأرض » .

وقال نبى المسيحية فيها : « مبارك شعب مصر » .

وهذا واحد من أبنائها ، إنه الزعيم مصطفى كامل ، باعث وطنيتها ، وشاحذ همتها . لقد عشق مصر ، وأفنى حياته فى سبيلها ، قضى حياته كلها مجاهدًا من أجلها ، فقد أنشأ جمعية أدبية وهو طالب بالمدرسة الخديوية الثانوية ، وكان يجتمع بأعضائها مساء كل جمعة ، يخطب فيهم ، مثيرًا الحماس ، منددًا بأعمال الاحتلال .

وفى سن التاسعة عشرة ، أنشأ مجلة أسماها « المدرسة » وهى مجلة وطنية ، تدعو الشباب إلى الحماس والدفاع عن الوطن ، كما راح فى تلك السن المبكرة يراسل الصحف ، ويتصل بساسة مصر ، مطالبًا بالعمل من أجل التحرير .

لقد خرج يطوف أوربا ، داعيًا زعماء الحرية فى كل بلاد العالم ، لمساعدة مصر فى التخلص من الاستعمار ، وفى مارس سنة ١٩٠٤ أنعم عليه السلطان برتبة الباشوية ، ودعا إلى إنشاء الحزب الوطنى فى ٢٢ من أكتوبر سنة ١٩٠٧ م وعُقدت أول جمعية للحزب فى دار اللواء فى ٢٧ من ديسمبر من العام نفسه . وكان قد أنشأ جريدة اللواء للتعبير عن الحركة الوطنية المصرية . وأصدر جريدتين إحداهما بالفرنسية ، والأخرى بالإنجليزية ، حتى يستطيع نقل صوت الوطن إلى الأجانب ، الذين كانوا يعيشون فى مصر .

وفى العاشر من فبراير سنة ١٩٠٨ م توفى مصطفى كامل ؛ وهو ابن ثلاثة وثلاثين عامًا ، إننا نذكر مصطفى كامل ، عاشق المحروسة ، التى ملكت عليه عقله وفكره ، وحسه ونبضه .

كانت خطابته أدبًا .. ففى إحدى خطبه بمدينة الإسكندرية فى الثانى والعشرين من أكتوبر عام ١٩٠٧ م قال :

– بلادى بلادى .. لك حبى وفؤادى ، لك حياتى ووجودى ، لك دمى ونفسى ، لك عقلى ولسانى ، لك لبى وجنانى ، فأنت أنت الحياة ، ولا حياة إلا بك يا مصر .

– لو لم أولد مصريًا ، لوددت أن أكون مصريًا .

– تقول لهذه الأمة في الصباح وفى المساء : اليوم عسر وغدًا يسر . اليوم احتلال ، وغدا استقلال . اليوم عَنَاء وشقاء وغدًا رخاء وهناء .

وانقشع ظل الاستعمار عن مصر ، وعاد إليها رخاؤها ، لقد أحب مصطفى كامل فأحبته ، وأحبه شعب مصر العظيم ، فكانت المراثى تعبيرًا عن هذا الحب العظيم ، يقول أمير الشعراء أحمد شوقى :

يا حب مصر ، ويا شهيد غرامها ... هذا ثرى مصرٍ ، فَنَمْ بأمان
اخلع على مصرٍ شبابَك غاليا ... والبس شباب الحور والولدان

ويقول الشاعر خليل مطران فى رثاء الزعيم مصطفى كامل :

مصر التى غسلَتْ يداك جراحَها ... بصبيب دمعك جاريًا مستنزفًا
مصر التى كافحْتَ ضد عداتها ... متصدرًا لرماتها ، مستهدفًا
مصر التى أحببتها الحبَّ الذى ... بلغ الفداء نزاهة وتعففًا

إننا يجب أن نعطى مصر كل الحب ، لتعطينا كل الأمان . نعطيها الجهد والوفاء ، لتعطينا الرخاء .

ذاك زعيم الشعب ، وهذا فنان الشعب :

هذا الشعب العظيم ، الذى أبدع حضارة مبكرة ، استحق أن يتعلق به أبناؤه ، واستحق أن يرتبطوا به أرضًا ، وإنسانًا . فكان منه الزعيم ابن الشعب ، وكان منه الفنان ابن الشعب .

ويذكر التاريخ الفنى للموسيقى فى مصر أن الشيخ سيد درويش أول من وضع أسس النهضة الأولى للموسيقى العربية ، فهو أول من لفت العقل إلى المعانى فيما كان يؤلف من مقطوعات غنائية ؛ لأن الغناء آنذاك ، لم يكن يحفل بالمعانى ، بل كان أداة لإظهار مهارة المغنى وقدراته .

لقد بذر — أول ما بذر — ألحانًا تعبر بالموسيقى عن معانى الكلمات . فلدى سماعنا أغنية « السقايين » ، نحس من خلالها بإحساس الجماعة ، فقد جاء لحنه نابعًا من قلوب هذه الطائفة ، ولم يكن قد سبقه أحد إلى هذه الطريق ، لقد كان توثبًا قويًّا فى نهج التلحين والتجديد فيه .

أثار هذا التوثب الجديد تيار المعارضة ضد سيد درويش ، ولكنه مضى قُدُمًا ، لم يأبه بما كان يثيره ضدَّه محاربو تيار التجديد الواعى ، الذى حمل لواءه ، كان الشعب يستقبل أغانيه ويرددها ، فكأنما كانت ألسنة الجيل الناشىء محطات إذاعة متنقلة ، وفى البيوت على ألسنة ساكنيها ، رجال ونساء ، ما كان سيد درويش يقدم مسرحية إلا وتزدحم الأبواب والطرقات المؤدية إلى المسرح ، بالرُّوَّاد وراغبى المشاهدة ، وكان العرض يمتد إلى ثلاثة أشهر متواصلة كل مساء .

لقد نطقت ألحانه بالشكوى المرَّة من استغلال الأجانب موارد البلاد وثرواتها ، وعزف بموسيقاه على وتر الغَيْرة الوطنية ، والانتماء ، والدعوة إلى الإصلاح الاجتماعى والاقتصادى ، وندَّد بأولاد الذوات المتنطِّعين ، وكانت ألحانه أصدق مرآة لما يجيش فى النفوس ، وتنطوى عليه أمانى الشعب وآماله .

لقد لُقِّب « فنان الشعب » لأنه انفعل بالبيئة الشعبية التى نشأ فيها ، واستوحاها فمنحته الموسيقى الشعبية الأصيلة .

لم يعرف أضواء القصور ، ولا التقرب إلى الحكام ، أو أصحاب النفوذ ، فبقى ابنا للشعب ، ينتج له ، ويترجم مشاعره .

كتب بديع خيرى أغنية تبين الروابط الوثيقة بين مصر والسودان ، ولحنها سيد درويش ، فى فجر شبابه بالإسكندرية ، فنالت كلمات الأغنية الشهرة عن طريق أنغام سيد درويش ، فلم يكن يخلو حفل ، أو مهرجان وطنى من ترديدها .

وحين انتقل إلى القاهرة ، ظلت حياته كما هى ، يخالط الأوساط الشعبية ، ويرتوى أنغامًا من طبيعتها ، كتب له أفذاذ شعراء الشعب حينئذ .. بديع خيرى ، وأمين صدقى ، وبيرم التونسى ، واستعان به جورج أبيض لكى تُنقِذَ ألحانُه ركودَ المسرح ، بعد وفاة الشيخ سلامة حجازى عام ١٩١٧ م .

لقد كان طاقة جبارة ، تحمل هموم المواطنين ، وتُخرِج من داخلها ما يحاول إزالة الهموم ، أو توجيه الحكام ، إنه ابن الشعب ، وفنان الشعب سيد درويش .

من أعماله الفنية « أوبريت شهرزاد » :

أوبريت « شهرزاد » التى كتب أشعارها بيرم التونسى ، وقدم موسيقاها سيد درويش ، قُدِّمَت لأول مرة منذ سبعين عامًا ، حيث قام ببطولتها الفنان سيد درويش ، ثم قُدِّمت مرة ثانية فى الثلاثينيات

والأربعينيات وقدمتها بعد ذلك هيئة المسرح والموسيقى والفنون الشعبية ، على مسرح سيد درويش بالإسكندرية عام ١٩٦٩ م .

وها هي ذى تُقدَّم الآن فى ثوب جديد ، يُحْدِثُ تواصلاً بين الجَدِّ ، والحفيد ، فى رؤية جديدة بعدما يقرب من ربع قرن .

تتحرك أحداث هذا الأوبريت على مساحة ثلاثة فصول . وهى قصة بسيطة ، داخل إطار فنى جميل ، تُعْرَض من خلاله لوحات غنائية استعراضية شيقة .

تدور أحداث الأوبريت فى ساحة القلعة ، التى تعتبر فى ذلك الوقت مدينة صغيرة ، يسكنها الرعية والجنود ، وحاشية الحاكم ، مع الحاكم والأميرة . يخرج الشعب لوداع جنوده الذاهبين إلى القتال .. ويتضح أن هذه الحرب لم تكن حقيقية ، بل كانت لعبة سياسية ، حبكها وزير الدولة المستبد الداهية ، الذى أراد إلهاء الأميرة وتسليتها ، بينما لم يكن الشعب يدرى من هذا الأمر شيئًا .

تشارك الأميرة الشعب فى حفل توديع الجنود ، مرددة معهم الأغانى الحماسية والوطنية ، وفى هذه الأثناء تقع عيناها على مجند شاب ، أُخِذَ للتجنيد إجبارًا ، فتُعْجَب به ، وتخلع عليه الرتب والنياشين والألقاب . وتعقد مؤتمرًا حربيًّا لمناقشة خطة الحرب ، التى هى فى حقيقتها خطة هزلية .

لم يكن هذا الجندى إلا «زَعَبْلَه» ، الذى ذهب إلى الحرب المزعومة ، وعاد منها منتصرًا . ويحكى للأميرة عن سلاحه الجديد ، الذى اكتشفه ،

واستخدمه فى تخدير جنود العدو ، إنه العصيدة بالعسل والمخدر . ويقنع الأميرة بأنه فضَّل هذا الأسلوب فى الحرب على التفريط فى قنبلة واحدة . وهنا تثور غَيْرَةُ حُسَّاده ، فيقررون تنفيذ مؤامرة ضده ، ويكيدون له عند الأميرة شهرزاد .

تفشل الخطة الأولى فى التآمر على « زعبلة » ، فيحاول المتآمرون تدبير مؤامرة ثانية ، حيث شاركتهم الأميرة فيها ؛ لأن « زعبلة » خطب « حورية » ، وكانت الأميرة مخطوبة لـ « قمع الدولة » ، فذهبوا إلى « زعبلة » ليلة عرسه ، وانهالوا عليه ضربًا بالنبابيت . ذهب « زعبلة » إلى الأميرة ليلة زفافها إلى « قمع الدولة » ، وشكا إليها المتآمرين ، وسرعان ما رقَّت مشاعرها ، واعتذرت له عما حدث .

هنا طلب « زعبلة » من الأميرة أن تسمح له بالعودة إلى مصر المحروسة ، ويتم ذلك فى موكب غنائى رائع ، ويسدل الستار حيث تنتهى الملهاة الموسيقية « شهرزاد » .

إن القصة – على بساطتها – تحمل رموزًا تدل على فساد الحكم فى ذلك الوقت ، كما تدل أيضا على أن بعض التمثيليات كانت تُنسَجُ لإلهاء الشعب ، حتى لو كانت هذه التمثيلية حربًا . وتدل على شهامة ابن البلد ، رمز الشعب ، فى تحقيق النصر ، ولو بطريقة كوميدية .

إن طبيعة سيد درويش المبدعة الثائرة ، كانت حريصة على استحداث ألوان جديدة فى الغناء ، تختلف عما كانت عليه الألوان الموسيقية السائدة فى ذلك الوقت .

إنه الإبداع ، وإنها العبقرية ..

إنها أوبريت « شهرزاد » ، التى اجتمع لها فنانان أصيلان ، فنان الكلمة .. بيرم التونسى ، وفنان النغمة سيد درويش .

أدب الأطفال والمسئولية الوطنية :

عندما يكتب أديب للكبار ، فإنه يخاطب فيهم العقل الراجح ، الذى يثير كوامن المحبة للوطن ، والولاء له ، أو يثير فيهم العواطف المتأججة أو غيرها .

ومن دلائل الانتماء الصادق ، الحرص على تنشئة جيل يحب الوطن ، بعواطف غير خطابية ، تقرِّب منهم المعنى والرمز ؛ ولذا كان أدب الأطفال محتاجًا إلى حرص كبير لأنه مسئولية وطنية .

ولقد تعددت تعريفات أدب الأطفال ، ويرجع السبب فى ذلك إلى قلة الدراسات الأكاديمية المُقنَّنة ، التى تدرس ما يكتب للأطفال ، كنوع أدبى له مبدعوه ، وناشروه ، وقراؤه .

وهناك تعريف لأدب الأطفال يقول : « إن أدب الأطفال ما يُكتَبُ ليقرأه الأطفال » وهو تعريف غير دقيق فيما أرى ؛ لأن كثيرًا من الكتب التى كتبت للكبار ، يمكن أن يقرأها الصغار ، فكتاب « صندوق الدنيا » لإبراهيم عبد القادر المازنى ، وكتاب « جنَّة الحيوان » للدكتور طه حسين .. يمكن أن يقرأهما الأطفال ، ويتفهمون المعانى ، ولكنهم لن يفهموا الشخوص ، ودوافع سلوكها ، وإيماءات الكاتب وأهدافه ؛ ولهذا فإن الكتابة للأطفال لها أسلوبها ومحتواها ؛ لأن أدب الأطفال يمثل

الخبرات المختزنة من طفولة الأديب ، وهو ما يتضح فى صياغة الأديب قَصَصَه ، وهذه الخبرات المختزنة لابد أن تُرَاجَعَ حتى يتحقق للطفل ما ينمِّى فيه عواطفَه ، ويؤكد انتماءه .

إن الأديب الذى يكتب للأطفال عليه أن يتحرى القصص الشائقة ، التى تُعَدِّل الواقع ، أو تنمى الخيال ، بحيث لا تؤثر فى التنشئة والسلوك ، كما أنه لابد أن تكون الصياغة فى أسلوب جذاب ، يأخذ بالألباب ، ويجمع بين رشاقة الكلمة ، وعمق المعنى ، وبُعْد الأثر .

ويجدر بنا أن نشير إلى أن قصص الأطفال أنواع عديدة منها القَصُّ على لسان الحيوان ، وقصص البطولة والمغامرة ، والقصص الفكاهية ، وقصص الخوارق ، والقصص التاريخى ، وقصص الخيال العلمى ، والأساطير .. إلى جانب القصص الشعبى ، وقصص الرأى والحيلة .

ونركز هنا على قصص الخوارق ، لأنها سلاح ذو حَدَّين فى تربية الأطفال ، إذ المعروف أن هذا النوع من القصص يمتلك مشاعرهم ، ويلْقَى قبولاً شديدًا عند معظمهم ؛ ولهذا نجد منها سلاسل كثيرة ، وأشهرها « سوبرمان » و « طرزان » و « رجل المستحيل » و « رامبو » وغيرها .

ويظهر البطل فى هذه القصص خياليا لا يُغْلَبُ ولا يُقْهَر ، إنه يمتلك قوة غير اعتيادية ، بل ويتكلم بسبعة ألسن ، يقود كل أنواع المركبات ببراعة لا توصف ، ويتخلص من المواقف الصعبة بسهولة لا تتفق مع العقل ، يقتلع المبانى بقبضته الفولاذية ، وتكفى نظرته لتدمير أعدائه ،

ويستخدم القُوَى العلمية فى كثير من الأحيان ، بما لا يتفق مع العقل ، أو العلم ..

إن مثل هذه الشخصية ، التى ترد فى قصص الخوارق قد تصيب الأطفال بمرض الهروب من الواقع ، ومحاولة إيجاد حلول خيالية لمشاكلهم ، وذلك إذا ما تعارضت مع الواقع ، وهو أمر يصيبهم بالخذلان والانكسار ، فيخلق جيلاً محطمًا ، منهزمًا .

إن قصص الخوارق بها آثارها السلبية ، التى ينبغى أن تكُونَ نُصْبَ عَيْنَى الكاتب ، حتى يتحاشاها من أجل إيجاد جيل قوى ، ذى عواطف متزنة ، تعرف معنى الانتماء للأسرة ، والشارع ، والقرية أو المدينة ، والمجتمع ، والوطن ، بل والإنسانية كلها .

وقصص الفكاهة من القصص التى يقبل عليها الأطفال ؛ لأنها – إلى جانب المضمون – تحقق جانب الإضحاك والتسلية .

كما أنها تُقَدَّمُ بطريقة تثير التفكير لدى الطفل ، فتشبع لديه رغبة الفرح ، بعد فهم لغوياتها ، وهنا تكون هذه القصص قد حققت فى نفس الطفل القيمة ، وغرست مبادىء الأخلاق . أما قصص الرأى والحيلة فإنها تجذب الأطفال أيضًا ؛ لأن بطلها ذكى ، يتصرف بحيلة ، شريطة أن تكون هذه الحيلة بعيدة عن الكذب والغش والنفاق .

إننا – من منطلق حب الوطن ، بل حب الإنسانية – ينبغى أن نقدم لأطفالنا أدبًا يحميهم مما يغزو عقولهم ، ويسيطر على سلوكهم ، حتى

نخلق جيلاً تحكمه قيم مجتمعنا ، وخصائص بيئتنا ، إن أدب الأطفال مسئولية فى أعناق الكبار ، سواء فى الإبداع أو فى الاختيار .

الهراوى .. شاعر الكبار والصغار :

من النماذج التى مارست كتابة أدب الأطفال الشاعر « الهراوى » ، الذى كتب بمسئولية ، واستهدف من وراء كتابته تأكيد القيم لدى أجيال الغد ، وتثبيت فكرة الانتماء .

لقد شاع ذِكْرُ الشاعر الهراوى فى أدب الأطفال ، حيث إن له إبداعاتٍ كثيرةً فى هذا المضمار ، شغل بها وقت الأطفال ، وملأ فراغهم ، ووجَّههم خير توجيه .

لقد استطاع شاعرنا أن يحكى للأطفال فى بساطة شديدة قصة خلق الكون » ، ثم معرفة الله تعالى ، ثم أنباء الرسل ، إلى جانب عديد من الأناشيد التى غطت كل المناسبات الوطنية والاجتماعية تقريبًا .

لقد كان رائدًا فى شعر الأطفال ، وهو المجال الذى لا يدخله إلا شاعر مدركٌ رسالتَه نحو جيل المستقبل ، فقد جمع شعرُه نواحيَ عدة ، بين غرس المشاعر ، والتطبيق العملى لها ؛ لأنه لا يكفى أن نتغنى بالوطن ، تعبيرًا عن حبنا إياه ، بل ينبغى أن يكون العمل أغنيتنا المفضلة ، المصاحبة لهذا الغناء .

قال الشاعر الهراوى فى نشيد بعنوان « حب الأهل » :

أختيَ قــالت مــرةً　　أجب عــن الســؤالِ
أبوكَ .. هــل تحبُّهُ ؟　　فقلتُ : رأسُ مــالى
قــالت : وأمى مثلُه ؟　　قــلتُ : بلا جــدالِ
قالت : ومن غيرُهُما ؟　　قــلتُ : جميــعُ الآلِ

أما فى مجال الكتابة للكبار ، فقد كان الهراوى شاعرًا ذا مكانة معروفة ، وإن لم يشتهر بها شهرته كشاعر للأطفال .

عندما أقام أدباء العروبة مهرجانًا عامًّا لمبايعة « أحمد شوقى » أميرًا للشعراء عام ١٩٢٧ م ، تمرَّد جماعة من الشعراء على هذه الإمارة ، وعلى رأسهم الهراوى ؛ لأن الهراوى كان يرى أنها بدعة ، فلكل شاعر مكانته فى عالم الشعر ؛ ولهذا دعا إلى مقاطعة المهرجان .

وكان الهراوى يعمل مع الشاعر حافظ إبراهيم فى دار الكتب ، فاتفق مع حافظ ، ولفيف من أصدقائهما الشعراء ، والتقوا على مقهى فى نهاية حى العباسية ، وكان مدار الحديث فى هذا اللقاء التندُّرُ على شوقى ، حيث عارض حافظ قصيدة شوقى :

مــال واحتجبْ　　وادعــى الغضبْ
ليت هــاجرى　　يشــرح السببْ

بقوله من قصيدة هزلية :

شــال وانخبط　　وادعــى العبط
ليت صــاحبى　　يبلــع الزلــط

وأخذوا يُجيزون ، أى يكتبون على نفس الوزن والقافية ، حتى بلغت القصيدة ستين بيتاً .

جاء الشاعر « محمد الأسمر » يشكو من أن الهراوى أهداه ساعة غير منضبطة ، تارة تمشى (عربى) وتارة (أفرنجى) وثالثة (لا عربى ولا أفرنجى) ، وأخذوا يتندرون على هذه الساعة ، بفكاهات لطيفة ، سجلها الهراوى شعرًا ، حيث يقول :

وساعةٍ أهديتُهـا ... إلى الأديب الأسمرِ
تمشى عليها الشمسُ فى ... عطاردٍ والمشترى
وقد ظننتُ أنه ... بمثِلها لم يَظفَرِ
حتى احتوانا مجلسٌ ... يفيضُ بالتندُّر
فجاءنا الأسمرُ فى ... زمجرةِ الغضنفرِ
ثم رمى بساعتى ... فى هيئةِ المُستَنكِرِ
فقلتُ : مهلاً يا أخى ... فَضَحْتَنى فى مَعْشَرِى
فانهمرت نكاتُهم ... مثلَ السحاب المطرِ
فقلت : كُفُّوا ساعةً ... عن ساعةٍ لم تَستُرِ
إن قصَّرَتْ فإنها ... فى زمنٍ مُقَصِّرِ

لقد بهر شاعرُنا الهراوى » الأطفال بشعره ، كما شارك الكبارَ بأدبه ، وكأنما كان يدعونا إلى الاهتمام بأدب الطفل ، الذى ندعو الكتاب والشعراء جميعًا إليه اليوم ؛ لأنهم يمثلون اليوم فى إسعادنا بمرحهم ، وَهُمُ الغد عندما يكونون شبابًا ، يمثلون كل المستقبل .

الشعراء الظرفاء والعيوب الجميلة :

امتلأت أيام الشعر العربي بشعراء التزموا الجدَّ فيما أبدعوا ، ولكن بعضهم كان يحمل خفة دم ، تُمْتِعُ كلَّ عارفيه ، فيبحثون عنه ، ويختلطون به ، ويستمعون إليه .

وكان هؤلاء الشعراء يُضْحِكون الناس ، والعَبَرَات تخنُقهم . ويُشيعون الأمل ، واليأس يكاد يقتلهم ، ويضحكون بشفاههم وفى قلوبهم حسرة ، لقد مات أغلبهم حزينًا مهمومًا ، بعد أن ترك خلفه ابتسامةً مضيئة على كل الشفاه .

لقد وُجِدَ هؤلاء الظرفاء ، على مر العصور ، منذ أن نسج خيالُ الناس قصة « جُحا » ، التى خلقها خيال. مجموعة من المهرِّجين ، مرُّوا فى رحلة عمرهم على طريق ، دون أن يتركوا علامة أو أثرًا .

إلا أن الذى ينبغى أن ننبه إليه أن بعض هؤلاء الظرفاء ، قاد الجماهير ، وأشعل – من خلالهم – نار الثورة ، واقتحم تاريخ البطولة من أوسع أبوابه .. من هؤلاء الشاعر الظريف « عبد الله النديم » ، الذى انصهرت زعامته فى بداية حياته فى مهنة الظرفِ ، التى احترفها طويلاً ، لقد خالط كل أفراد المجتمع فى الحوارى والأزقة ، وعلى المقاهى ، واستخرج النكتة التى يعشقها الشعب المصرى ، ويستخدمها سلاحًا فى وجه الذين يعوقون حركته نحو الارتقاء .

من كان يتصور أن المصريين سيهبُّون بالمراوات والعِصِىِّ والبنادق ، القديمة القليلة التى فى حوزتهم ، ليطالبوا بالدستور والبرلمان ، وخَلْعِ الخديو الخائن ؟ !!

ومن كان يظن أن النديم – الذى لا مهنة له ، والذى فشل فى دراسته – ينجح فى النكتة ، التى كانت تثير الجماهير ، وتدفعهم دفعا نحو الثورة ، وما إن تحركت الثورة حتى وقف النديم خطيبًا قائلا :

« أيها المصريون .. لعن الله من يكره الحرية ، لعن الله من تَعِفُّ نفسه عن أطايب الطعام ، لعن الله من يقعد متفرجًا ، لعن الله من لا يتبعنا » .

وتفشل ثورة عرابى ، ويُقْبَضُ على النديم ، ويُنْفَى ، ثم يعود مُشْهِرًا قلمَه ، داعيًا للثورة . ويُنفَى مرة أخرى إلى تركيا ، ويُتَوَفى بعد أن يُجْهِدَه النضال .

إنه لم ينس النكتة فى نضاله ، النكتة التى تمثل روح المصرى ، والتى تمثل جزءًا من ثقافته ، بل سلاحًا من أسلحته .

ورغم خفة روح هؤلاء الشعراء ، كانت لهم بعض العيوب الجميلة ، ويرجع جمال هذه العيوب إلى عدم إمعانهم فيها ، فقد كانت تأتى عفوًا . قد يبخل بعضهم ، أو لا يهتم بمظهره ، أو يكون الآخرون فى هامش اهتمامه أحيانًا .

كان من هؤلاء الظرفاء الشاعر « حافظ إبراهيم » ، حدث مرة أن كان يحضر حفلاً موسيقيًّا ، وكان العزف رديئًا ، والآلات قديمة بالية . وطلب حافظ من قائد الفرقة أن يسمعهم لحنًا معيَّنًا ، فأجاب المايسترو

بأن اللحن الذى يطلبه حافظ سبق عَزْفُه منذ دقائق ، يصيح حافظ على الفور : « يا سلام .. على كده يبقى انبسطنا » .

وهذا الظرف فى نكتة حافظ لم يظهر فى شعره ، إذ إنه كان فى قرارة نفسه حزينًا ، يشعر بالوحدة ، ويُحِسُّ الحرمان .

أضف إلى من قَدَّمنا شخصية الشيخ « عبد العزيز البشرى » والشاعر « عبد الحميد الديب » و « شفيق المصرى » و « محجوب ثابت » ، وكذلك « بيرم التونسى » الذى قال من شعره الساحر :

يا بائعَ الفجــل بالمــليم واحـــدة
كم للعيـــال ، وكم للمجلس البلــدى
إذا الرغيف أتى ، فالنصـف آكُلُــه
والنصـف أجعلـــه للمجلس البلدى
كــأن أمى – أبَلَّ الله تُربَتَهـــا –
أوصت فقالت : أخوك المجلس البلدى

رحمَ الله هؤلاء الشعراء الظرفاء ، الذين عشقوا الوطن ، ولم يزلزل ثِقَتَهم به عارضٌ من ضيق ، طارئ ، لأن الوطن بالنسبة لهم حياة ، ولا حياة إلاّ به .

الفصــل الثانى

الروافد الثقافية للإنسان المصرى

الامتـداد الثقـافى

عندما تكون السياسة أدبًا :

إننا نعبرُ عن أفكارنَا بالعبارات ، التى تشتمل على كلمات مختارة . واختيار الكلمات عملية إبداعية ، حتى فى التعبير العلمى ، أو التعبير عن التاريخ أو الاقتصاد ، أو الاجتماع ... إلخ .

وأصحاب الرسالات ينقلون أفكارهم عبر كلمات وجمل دقيقة مختارة إنهم يَسُوسُون الكلمة ، ويُقيمون العبارة ؛ لتنقل رسالتهم التى تحوى سياستهم الداخلية والخارجية .

ولقد كان النبى محمد ﷺ أبلغ من جعل من السياسة أدبًا ، ولم يكن ذلك لاشتهار العرب بالبلاغة ، ولكنْ لأن الجملة البليغة هى المَعْبَر إلى السياسة .

لقد أهدى رسول البشرية كل ما أفاضه الله عليه من فضل وعلم وحكمة وخلق . أهدى الرسولُ البشريةَ كلَّ هذا ببلاغة وأدب ، كانا يتوِّجان سلوكه السياسى والاجتماعى ، سلوكه مع مواطنيه ، وسلوكه مع أهل الأديان الأخرى ، إنها السياسة الداخلية ، والسياسة الخارجية .

لقد أهدى الرسول الإنسانية كلَّها فكرًا وأدبًا ، يستوى فى هذا أتباعُه وخصومُه ... هذا هو الحَبْرُ اليهودى « زيدُ بن سعنةَ » صاحب الثِّقَل العلمى والمادى فى قومه ، يقول : « لم يكن من علامات

النبوة شيء ، إلا وقد عرفته في وجه محمد ﷺ ، إلا اثنتين لم أُخبُرْهما منه ، يسبق حلمُه جهلَه ، ولا تزيده شديدة الجاهل إلا حلمًا » . واستطرد قائلاً :

كان النبي مع علي بن أبي طالب ، فاعترضه رجل قادم من سفر وقال للرسول : لي نفرٌ من أهل قرية كنتَ حَثَثتَهم أن أسلموا ، أتاهم الرزق رغدًا ، وقد أصابتهم شدة وقحط من الغيث ، وأخشى أن يرتدُّوا عن الإسلام .

استغلَّ « زيد بن سعنة » هذا الموقف ، وعرض على الرسول أن يقدم ثمانين مثقالاً من الذهب ، مُقَابل تعهد الرسول أن يدفع مقابلها تَمْرًا ، قبل النبي هذا العرض لينقذ القرية المنكوبة ، فلما جاء موعد تسليم التمر ، أتيت النبي فأخذت بمجامع قميصه ، ونظرت إليه بوجه غليظ ، وقلت : يا محمد ! ألا تقضيني حقي دون مماطلة ، نظر عمر بن الخطاب إليَّ في غيظ وقال : أتقول لرسول الله ما أسمع ، وتصنع ما أرى . فوالذي نفسي بيده ، لولا ما أُحَاذِرُ فَوْتَه لضربتُ رأسَك بسيفي .

نظر الرسول ﷺ إلى عمر وقال : يا عمر أنا وهو كنا أحوجَ إلى غير هذا ، أنْ تأمُرَني بحسن الأداء ، وتأمرَه بحسن اتباعه ، اذهبْ به يا عمر ، وزِدْه عشرين صَاعًا من تَمرٍ نظيرَ ما روَّعته ، هنا بُهِتَ اليهودي وقال : يا عمر ، إني قد رضيت بالله ربًّا ، وبالإسلام دينًا ، وبمحمد نبيًّا ، وأشهد أن شَطْرَ مالي صدقةٌ على أمة محمد ، وذهب إلى رسول الله وقال أمامه : أشهد أنْ لاَ إله إلا الله ، وأشهد أن محمدا عبده ورسوله .

هكذا كانت سياسة الرسول أدبًا ، نقل فكره وسلوكه فى أبلغ كلمات ، وأصدق تعبيرات .

إنها بلاغةُ النبوة ، التى جعلت من السياسة أدبًا ، تتناقله الأجيال ، حفظته مصر من خلال الأزهر الشريف ، تراثًا خالدًا ، حفظ لمصر بقاءها الفكرى ، ونمطها السلوكى .

آباؤنا الأوائل فى اللغة والفقه والحديث :

عنِىَ العلماء العرب بلغتهم ، قواعدِها وأصولها ، فقامت مجموعة منهم بجمع ألفاظها ، حتى لا تذوب فى لغات الشعوب التى استعربت ، أى التى خضعت للعرب ، وتكلمت بلسانها . كانوا يقصدون إلى نجد فى الجزيرة العربية ، حيث ينابيعها الصافية ، ينقلون عن قبائل تميم وقيس وأسد ، ألفاظ اللغة مباشرة من الأفواه .

وبهذا الجهد جمعوا أصول اللغة وقواعدها ؛ لتكون تراثًا لمن بعدهم . وكان على رأس هؤلاء أبو الأسود الدؤلى ، الذى وضع نقط المصحف الكريم ، التى تبيِّن حركات الفتحة والضمة والكسرة .

– وعبدالله بن أبى اسحق الحضرمى ، أول النحاة البصريين ، وواضع منهج النحو ، والقياس ، وشرح العلل .

– وعمر بن عيسى الثقفى أول من ألف الكتب فى النحو ، وله كتابان : الإكمال والجامع .

– وأبو عمرو بن العلاء أحد القُرّاء السبعة ، الذين أُخِذَت عنهم قراءات القرآن الكريم .

– الخليل بن أحمد الفراهيدى واضع علمَىْ النحو والعروض ، فى صورتهما النهائية ، التى بين أيدينا الآن .

– أبو بشر عثمان « سيبويه » تلميذ الخليل بن أحمد ، وعالم اللغة ، وحجة النحويين .

ولقد كان جهد الآباء العرب كبيرًا فى إرساء قواعد الشريعة الإسلامية ، استنادًا إلى الأحاديث المروية عن النبى ﷺ ، مع بعض نصوص القرآن ، وما طرأ من أحكام ووقائع ، تحددت باختلاف الزمان والمكان ، واتساع رقعة الدولة الإسلامية . والأئمة الأربعة هم :

– الإمام أبو حنيفة النعمان المتوفى سنة ١٥٠ هـ

– الإمام مالك بن أنس المتوفى سنة ١٧٩ هـ

– والإمام الشافعى المتوفى سنة ٢٠٤ هـ

– والإمام أحمد بن حنبل المتوفى سنة ٢٤١ هـ

إنهم أصحاب المذاهب الأربعة ، التى ارتضاها معظم الأمة . لقد أرسَوْا قواعدَ علوم الفقه والحديث ، وأَوْدَعُوها أمانةً حملها تلاميذُهم من بعدهم ، فوفّوا الأمانةَ حقَّها ، واستحق كل من هؤلاء التلاميذ أن يلقَّب بالإمام

– فالإمام البخارى المتوفى سنة ٢٥٦ هـ .

– والإمام مسلم المتوفى سنة ٢٦١ هـ

– والإمام أبو داود المتوفى سنة ٢٧٥ هـ

– والإمام الترمذى المتوفى سنة ٢٧٩ هـ

– والإمام النسائى المتوفى سنة ٣٠٣ هـ

رضى الله عنهم جميعا ، فقد حملوا الرسالة الإسلامية للهداية ، لقد أناروا الطريق أمام بنى البشر ، ووضعوا لهم أسس الحياة فى الحرب والسلام ، فى الحياة ، وفيما بعد الحياة . لقد تركوا للبشرية كلها تراثًا لا ينضب معينه ، يبقى على مرّ الزمن تنهل منه الأجيال جميعا .

حماية اللغة ، ومواكبة التطور :

هذه الجهود الخصبة ، وهذا المذخور الطيب ، لابد أن تحمله الأجيال فماذا كان من دور أجيال الخَلَف ؟ يتسع مجال البحث فى العالم العربى عامًا بعد عام ، فتُنشأ جامعات ومعاهد متخصصة ، فى بلدان لم يكن لها بها عهد قبل ذلك .

وتُؤسَّسُ – تبعًا لذلك – المعامل ومراكز البحوث ، وتزوَّدُ بأحدث الأجهزة ، وأدق الآلات . وتنشط الحركة العلمية نشاطًا يبعث على الأمل ، ويدعو إلى التفاؤل .

وللعلم لغة لا حياة بدونها ، فهى وسيلتُه للدرس ، وطريقُه للنشر والتعلّم . وللأدب أيضا لغته التى تربط بين قرائه أو مستمعيه ، وهى

وسيلته لتحقيق الغاية المرجوة من إقناع وإمتاع ، وبهذين الجناحين (العلم والأدب) تنشط الأمم ، وتحقق نهضتها ، وتبنى تقدمها .

لقد كان للعلم فى الإسلام لغة نشأت وتطورت على مرّ الزمن ، ثم استقرت ، ووضحت مدلولاتها ، وتداولها الباحثون فى المشرق والمغرب ، حيث إنها لم تختلف من قُطر إلى قُطر ، فكانت لغة واحدة فى قرطبة والقَيروان ، فى الفسطاط ودمشق ، فى بغداد وأصفهان .

وَسَرَتْ بعض المصطلحات العلمية العربية إلى لغات أخرى كالفارسية والتركية والعبرية وغيرها ، وما إن ركد البحث العلمى فى العالم العربى ، حتى ركدت لغته معه ، فبدأ الناس يُعْرِضُون عنها .

ولقد دعت الحاجة إلى إنشاء المجامع اللغوية والعلمية ، فى العالم العربى ، فكان إنشاء المجمع العلمى العربى فى دمشق عام ١٩٢٢م والمجمع العلمى العراقى ببغداد بعد ذلك ، وكان المجمع اللغوى بمصر عام ١٩٣١م .

وأدت هذه المجامع دورها ، من خلال أبحاث علمائها ومفكريها . وكان دور المجمع اللغوى بمصر رائدًا فى مواكبة النهضة العلمية العربية الحديثة ، فكوّن لها لغتها ، بإحياء شىء من المصطلح القديم ، ووضْع ألفاظ جديدة ، بالاشتقاق أو النحت أو التركيب .

ولم يتردد بعض الباحثين فى أن يعرب ، بل وربما أسرف فى التعريب ، ونُطِقَت الكلمات المعرَّبه بطرق مختلفة ؛ مما أدى إلى الشكوى ، والرغبة الملحَّة فى تكوين لغة موحَّدة للعلم والحضارة .

لقد وضع المجمع اللغوى طائفة من المعاجم العلمية ، التى عالج بعضُها مصطلحاتِ علمٍ بعينه كالطب ، ومنها ما عالج المصطلحات العلمية والأدبية بوجه عام ، إلا أنها كانت تحمل الطابع الموسوعى الواضح ، ففيها الطب والكيمياء والجيولوجيا والهندسة السلكية واللاسلكية ، والتاريخ والجغرافيا ، والفلسفة وعلم النفس .

وهذه بعض الألفاظ التى أقرها المجلس على سبيل المثال :

– الكليم Kilimوهى كلمة أجنبية بنصها ودلالتها ، التى تعنى الفرش الذى له وبرة .

– والبُورسُلين وهى كلمة أجنبية بنصها ودلالتها ، وتدل على الخزف الصَّلْد الأبيض ، نصف الشفاف ويستخدم فى صناعة الأوانى والثريات (النجف) .

– وكذلك كلمة (شُرَّابة) ، وهى مجموعة الخيوط المعروفة ، التى تضاف للملابس أو الستائر حِلْيَةً وزينة .

– وأيضا (المونولوج) ، وهو المشهد المسرحى ، الذى يؤديه ممثل واحد ؛ لأن المقطع (مونو) يعنى (فردا) باللاتينية .

– وكذلك (ديالوج) وتعنى حديثا حواريا بين اثنين أو أكثر ، فالمقطع (ديا) معناه اثنان باللاتينية إنهم علماء مصر المحروسة ، ومجمعها اللغوى الدءوب ، الذى يعى دوره الخطير فى الحفاظ على اللغة وتطويرها ، لأن ضياع اللغة ضياعٌ للفرد وللأمة .

آباؤنا الأوائل في الأدب والشعر والتاريخ :

اتجه نفرٌ من العلماء إلى رواية الأدب والتاريخ ، فكانت لهم حلقات بالمساجد ، يقوم كل منهم بتقديم فنه ، واستعراض قدرته على الحوار والمناظرة .

وكانوا يختلفون إلى مجالس الخلفاء والوزراء ، يَقُصُّون الطرائف والنوادر ، وقد حظى الأدب في المجتمع العباسى باهتمام بالغ ، وتشجيع من الخلفاء ، فإذا بزغ نجم أديب ، استُدْعِيَ إلى دار الخلافة ، أو إلى دور الوزراء ، فإذا العطايا والرواتب تُفْرَض له ، ففى مجال النثر كان ديوان الرسائل ، الذى لعب دورًا كبيرًا في نهضة النثر العربى .

نذكر من أقطاب كُتَّاب النثر :

– ابن المقفع ، الذى جمع بين ثقافات مختلفة ، وهو صاحب كتاب « كليلة ودمنة » الذى أثرى المكتبة العربية بما قدمه من فكر .

– سهل بن هارون ، وكان غزير العلم ، واسع الحلم ، وهو أحد الذين جمعوا بين الشعر والخطابة والرسائل ، وكان يُعْنَى باقتناء أمهات الكتب ، حتى عُيِّن رئيسًا لدار الحكمة أيام الرشيد ، وكان مكتبته عامرة بالكتب التراثية ، والكتب المترجمة .

– أبو عثمان عمرو بن الجاحظ ، وكان حجة فى علوم المنطق والأديب والتاريخ ، وتشهد كتبه بذلك ، البيان والتبيين ، الحيوان ، البخلاء .

– أبو جعفر محمد بن جرير الطبرى ، عميد مؤرخى الإسلام ، وصاحب التاريخ المشهور .

– أبو الفرج الأصفهانى ، صاحب كتاب الأغانى الشهير .

أما عن الشعر ، فقد ظل الشعراء فى بداية العصر العباسى الأول ينظمون أشعارهم على طريقة شعراء الجاهلية ، ولكن تطوروا حدث نتيجة امتزاج الثقافات المنقولة أو المترجمة ، وما عُنِىَ به الشعراء من جمع تراثهم الأصيل .. كل ذلك أحدث تواصلا بين القديم والحديث ، وإن اختلفت الموضوعات فى الوصف الرشيق ، والتصوير الدقيق .

ويرجع الفضل فى التطوير أصلاً إلى جهد الخليل بن أحمد فى اكتشاف أوزان البحرين المضارع والمقتضب .فالمضارع تفعيلاته مفاعيلنْ فَاعِ لاتُنْ مفاعيلنْ مرتان ، والمقتضب تفعيلاته مفعولاتُ مستفعلن مستفعلن مرتان .

وقد استغلَّ الشعراء هذين البحرين ، ومن هؤلاء الشعراء :

– بشار بن برد المتوفى سنة ١٦٧هـ

– أبو نُوَاس المتوفى سنة ١٩٨هـ

– مسلم بن الوليد المتوفى سنة ١٨٥هـ

– أبو تمام المتوفى سنة ٢٣١هـ

لقد استحق هؤلاء الرواد ثناء الأجيال التالية ، وأصبحوا مدارس أدبية ، يتخرج فيها التلاميذ جيلاً بعد جيل ، لقد وضعوا قواعد الفقه

والحديث ، وقواعد اللغة والأدب والتاريخ والشعر والنثر ، ذخيرة باقية ، وستبقى بإذن الله منارة للأجيال .

لقد قاد جهدهم كثيرًا من العلماء من بعدهم إلى البحث والتنقيب ، كما بذل الخلفاء جهدًا في تشجيع الدارسين ، حتى أصبحوا علماء ، حملوا المشاعل ؛ لتضيء الدنيا ، وتكشف عن حضارات العالم ، حضارات وعلوم ، كانوا السابقين إليها .

ثم كان إنشاء دار الحكمة ، أو بيت الحكمة في عهد الرشيد ، فكان يدا حانية ،تعرف للكتاب قيمته ودوره في بناء مجد أمة ، كان لها شأنها بين الأمم ، وسينهض هذا الشأن بفضل الناهضين من أبنائها ، مهما كانت الظروف التي تقف أمامهم .

﴿ فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً ، وَأَمَّا مَا يَنْفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الأَرْضِ ﴾

صدق الله العظيم [سورة الرعد من الآية : ١٧].

الثقافةُ العربيةُ والعالم المتغيِّر :

مرت القرون الماضية ، وقد صنع آباؤنا خلالها ما كان مجالاً للفخر ، إلا أن الأيام دول ، فقد بهت البريق ، ولكن الأصول ماتزال ، مايزال الإنسان الذى امتد من صلب الأجداد . وهاهو ذا القرن الواحد والعشرون يقبل على العالم ، وتتفجر الأحداث حدثا تلو حدث ، فهل تبدأ البشرية صفحة جديدة في كتاب التاريخ الإنساني ؟

وما دور ثقافتنا العربية إذن في هذا العالم المتسارع في التغير ؟

لقد آن للمثقفين أن يعبّدوا لنا الطريق نحو حياة أفضل ؛ لأن المجتمع الذى لا يحكمه عقل المفكر ، ونظرة العالم ، ووجدان الفنان ، مجتمع يتجه نحو الشقاء .

إننا فى حاجة إلى نظر ثاقب لرؤية المستقبل ،وتحقيق ديموقراطية الثقافة ؛ لأنهما الوسيلتان القادرتان على الوفاء بهذه الرؤية .

إن المثقفين المصريين فى مقدمة المثقفين العرب ، يمثلون كتيبة تتصدر المسيرة نحو المستقبل ، بطاقات قادرة على إدراك إشكاليات العصر ، واستشراف نوافذ الغد .

إن المثقفين يواجهون تحديات صعبة ، كانت ميراث عصر النهضة ، ومازالت تتربص بالوجود الثقافى العربى ، فهناك إشكالية الأصالة والمعاصرة ، أى الحفاظ على التراث ، مع مسايرة العصر ، وهناك إشكالية التناقض القائم بين الموروث من القيم ،والوافد من المعايير ، وهناك إشكالية الوجود الثقافى العربى ، والوجود الثقافى المتمثل فى ثورة المعلومات ، على مستوى العالم كله .

إن هذه الإشكاليات تعيش معنا ، وتلازمنا ، وتمثل تحديات حقيقية لحياتنا الفكرية والثقافية ، إنها تحديات متواصلة لهذا الجيل من المثقفين ، وتكمن خطورتها فى أنها تفاقمت فى الفترة الأخيرة .. فماذا نحن فاعلون ؟

إن صفوة المفكرين على المستوى العربى ، لابد أن يسهموا بطريقة فاعلة فى بناء ملامح الثقافة العربية الخلاّقة فى الفترة القادمة ، ويتمثل

ذلك فى تجويد الإبداع الثقافى ، محافظين على روح اللغة العربية ، واستخداماتها التى تستوعب فكر العصر ، وكذلك فى تحقيق الربط بين التنمية الثقافية ، والتنمية الاقتصادية ، إذ إنهما جناحان لطائر واحد ، وأيضا تأكيد الممارسة الديموقراطية ، بما يحقق انطلاق الفكر .

إنها فعلا ثلاثية التوجه نحو المستقبل ، ولكن ضمانات نجاحاتها تكمن فى سريان جو الحرية ، داخل مجتمع مدنى مجتمع يحقق الأمن الذاتى ، والرخاء الذاتى ، وهو ما يحقق انطلاقة ثقافية جديدة ، تمكننا من معايشة العصر ، والتفاعل معه ، والتأثير فيه ، والتأثر به ، دون أن تأكلنا التيارات الفكرية الوافدة ، ودون أن نفقد هويتنا الثقافية ، ويجدر بنا هنا أن نستعرض بعض الأوليات فى المجالات الثقافية المختلفة ، لعلها تكون دافعًا نحو النظرة الجديدة لمستقبل الثقافة فى هذا العالم المتسارع فى التغير .

آباؤنا الأوائل :

١ - فى بيت الحكمة والترجمة :

ما هو بيت الحكمة ؟

إنه مكتبة عامة أنشأها الخليفة هارون الرشيد فى بداية خلافته ، وأوكل أمر إدارتها ، والإشراف عليها إلى ابنه المأمون .

وقد جلب لهذه المكتبة الكثير من أمهات الكتب اليونانية والفارسية والهندية ، وكان وجودها مبعث أمل للعلماء العرب ، كى يدخلوا

مجالات البحث والدراسة ، لقد كان هارون الرشيد أول الخلفاء الذين اعتنوا بجمع الكتب ونسخها ، وترجمتها من لغاتها إلى اللغة العربية .

وقد أُسْند الإشراف العلمى على هذه المكتبة إلى الطبيب « يحيى بن ماسويه » . ويقال إن الرشيد أسند إليه رئاسة هذه الدار ، لترجمة الكتب الطبية ، التى أُحْضِرتَ من أنقره وعمُّورية وبلاد الروم .

كانت الكتب تحفظ فى هذا البيت « بيت الحكمة » بِلُغَاتها الأصلية : السريانية ، اليونانية ، اللاتينية ، الفارسية ، الهندية . وإلى جانبها ترجمات باللغة العربية ، وكانت هذه الدار ملتقى العلماء والدارسين والمترجمين ، وكثيرًا ما كان بعض العلماء يقوم بشرح الكتب للدارسين أو إلقاء محاضرات وندوات علمية يجتمع إليها الناس .

وفى خلافة المأمون (١٩٨ – ٢١٨هـ) تطورت هذه المكتبة ، وسُمِّيت دار الحكمة ، حيث أصبحت تضم عديدًا من المناشط ؛ جامعةً يقصدها الطلاب من كل مكان ، مركزًا للبحوث ، مراصد فلكية ، مكتبة عامة ،قسمًا للترجمة ، قسمًا للنسخ ، قاعات فسيحة للمطالعة ، وقاعة للمحاضرات .

ولم يكد يمضى عام ٢١٠هـ حتى أصبح فى كل عاصمة أو مدينة من المدن العربية والإسلامية مركزٌ علمى مماثل . وتولى إدارة بيت الحكمة بعد ذلك « سهلُ بن هارون » ، وكان يتناول الترجمات مع « سلم الخازن » على رأس مجموعة من العلماء هذا عن الفارسية ، وذلك عن السريانية والفارسية .

وفى العام نفسه كان « سلم الخازن » مع فريق من العلماء ، يطوفون على المراكز العلمية والمدارس ، يتعرفون عليها ، ويزوّدونها بما تحتاجه من الكتب ، وينقلون منها الكتب التى لم تترجم .

لقد واجه آباؤنا الأوائل الثقافات المختلفة ، ليفيدوا منها ، ويؤثروا فيها ، حيث كان اختبارًا صعبًا للغتنا العربية ، ولكن اللغة العربية – لغتنا – وقفت شامخة ، فإلى جانب أنها كانت لغة الدولة الإسلامية ، كانت أيضا لغة التفاهم بين الشعوب الإسلامية ، فى الحياة وفى التجارة ، وأصبح العلماء العرب والمسلمون يتكلمون بلسان واحد ، ولغة واحدة ، يشتركون فُرَادى وجماعات فى ترجمة أُمهات الكتب من الثقافات المختلفة ، فى الحكمة والفلسفة والطبيعة والرياضيات ، والطب والفلك وغيرها ، كل فيما يجيده من لغة ، حيث استطاعوا بعد فترة وجيزة أن يحوّلوا هذه الثقافات إلى ثقافة عربية إسلامية ، وأصبحت هذه العلوم علومًا عربية مفتوحة أمام كل طالب علم ، على خريطة الدولة الإسلامية .

لقد كان القرن الثالث الهجرى العصرَ الذهبى للترجمة ، وكان الجزاء من جنس العمل ، فقد كان العطاء جَزْلاً ، وكان تكريم العلماء وتشجيعهم طابع الخلفاء والوزراء ورجال الدولة ، على امتداد عهود الدولة الإسلامية كلها .

لقد كانَ هارون الرشيد ، ومن بعده ابنُه المأمون ، يعطيان المترجم وزن إنتاجه من الذهب ، تقديرًا لجهدهم ، فلم يكن أسلافنا مجرد نَقَلَةٍ لعلوم الآخرين ، ولكنهم وَاءمُوا بين الدراسة والتحليل ، والتدقيق

والتعليق ، كما كانوا يلتزمون الدقة والأمانة فى فهم الجملة والمعنى ، وفى نقلها إلى تعبير عربى دقيق سهل .

وأصبح للترجمة إلى العربية مدارس عديدة منها :

- مدرسة الحجاج بن يوسف بن مطر ١٧٠ – ٢٢٠هـ
- مدرسة قَسْطَاس بن لوقا البعلبكى المتوفى سنة ٢٦١هـ
- مدرسة حنين بن اسحق ١٩٣ – ٢٥٩هـ
- مدرسة ثابت بن قُرَّة ٢٢١ – ٢٨٨هـ
- مدرسة أبناء موسى بن شاكر ، وغيرها

لقد أفرزت هذه الجهود علماء عربًا ومسلمين ، طوروا العلوم الإنسانية ، ومهدوا الطريق للتأليف والبحث العلمى ، وما أحرانا أن نقتدى بهذه الجهود .

٢ – فى علوم البحار :

يتحدث العلم المعاصر عن الجغرافيا البحرية ، أو ما يسمى علوم البحار . وهذه العلوم تجمع بين علوم الجغرافيا والجيولوجيا والكيمياء والأحياء ، وأحيانا يَقْصِرُون علمَ الجغرافيا البحرية على دراسة رواسب أحواض المحيطات وسواحلها ، وأهمية الملاحة والمصائد ، والدراسات المناخية وغيرها .

وتشير المصادر العلمية إلى أن الملاحين العرب كانوا يجوبون شواطئ الخليج العربى ، وسواحل العرب الجنوبية والبحر الأحمر ، كما تشير

المصادر إلى أنهم كانوا على دراية تامة بالموضوعات البحرية ؛ فقد قادوا الأساطيل العربية التى تكونت فى صدر الإسلام .

وهناك أسماء لربابنة اشتهروا بقيادة السفن ، من أمثال : محمد بن شداد ، وسهل بن أبان ، والليث بن كُهْلاَن . وقد وضعوا خرائط بحرية ، كانت مرجعًا لكل مهتم بعلوم البحار .

إن علاقة عرب الجزيرة العربية بالبحار وثيقةُ الصلة ؛ نظرًا لأن البحار تحيط بها من جوانب كثيرة ، فالهجرة الأولى للرسول عليه السلام كانت إلى الحبشة ، وكانت قريش تعتبرها مَتْجَرًا لها ، يحققون من تجارتهم بها الأرباحَ ، وكانت قريش تعرف ملوك الحبشة ، وهو ما يدل على أن تجارة قريش لم تقتصر على البرِّ ، وإنما سلكت البحر أيضًا .

لقد كانت أول واقعة حربية فى بداية الإسلام هى حرب الردة فى البحرين سنة ١١ هـ ، إبَّان خلافة أبى بكر رضى الله عنه ، حيث خرج والى البحرين « العلاء الحضرمى » لحرب فارس ، وكانت معركة حربية ، استُخدمت فيها السفن ، وكان القائد الحربى « خُلَيْدُ بنُ المنذرِ بنِ شادى » ، قال حين اشتدت المعركة :

« أيها المسلمون .. إن القوم لم يدعوكم لقتالهم ، وإنما جئتم لمحاربتهم ، السفن والأرض لمن غلب ، فاستعينوا بالصبر والصلاة » فكان النصر .

وحين حدث القحط فى عام الرمادة عام ٢٥ هـ حمل عمرو بن العاص الطعامَ من مصر إلى المدينة على ظهر السفن ، ويمكن القول بأن الأساطيل البحرية الإسلامية لم تتكوَّنْ إلا فى خلافة عثمان بن عفان رضى الله

عنه سنة ٢٨ هـ ، حينما غزا قائده معاوية بن أبى سفيان جزيرة قبرص ، وتشكلت قيادة الأسطول البحرى فى الشام بقيادة عبد الله بن قيس الجاسى ، الذى غزا خمسين غزوة بَحْرية وبرية فى الصيف والشتاء .

وقائد البحرية فى الإسكندرية عبد الله بن سعد بن أبى سرح .

وعندما أمر عثمان رضى الله عنه معاوية بن أبى سفيان بغزو الأندلس ، تكونت قيادة بحرية فى الشمال الأفريقى بقيادة عبد الله بن نافع بن الحصين .

لقد كانت للعرب قدرةٌ كبيرةٌ فى مجال قيادة السفن ، كما كانوا على معرفة تامة بالرياح الموسمية ، فلم تكتفِ سفنُهم بمسايرة السواحل العربية ، بل مضت من جزيرة العرب إلى الهند والصين .

وقد نشط المؤلفون العرب فى كتابة تجاربهم ورحلاتهم ، مستعينين بربابنة السفن ، مما أثرى المكتبة العربية بمعلومات قيمة ، عن الرحلات البحرية والبرية ، أعانت علماء العرب – فيما بعد – على الدراسة والتأريخ . ومن هؤلاء العلماء :

– الكندى المتوفى سنة ٢٦٠ هـ

– السَّرخسى المتوفى سنة ٢٨٦ هـ

– الرُّبَّان برزك بن شهريار المتوفى سنة ٣٩٩ هـ

وقد نُقِلَتْ كتبُهم إلى كثير من اللغات ، فكانت مصدرًا لتأصيل علوم الجغرافيا البحرية ، ومرجعًا دقيقًا وهامًا للدارسين .

٣ – فى الخدمة الاجتماعية :

تصوَّر أننا نطل على القرن الأول الهجرى ، وقد مُنِحْنَا عيون زرقاء اليمامة . فماذا نرى ؟

أتخيل أننى سأرى فارسًا أقبل على صهوة جواده ، وقد دخل مدينة فتحها المسلمون .. يترجَّل الفارس .. يربط حصانه .. الناس من حوله فرحون ، وهو يوزع ابتساماته بين المستقبلين .

إنه أحدُ الدعاة المسلمين ، وأحدُ فرسانهم ، جاء بعد أن أدى واجبه فى ساحة المعركة ، ليؤدى واجبًا آخر ، واجبًا من واجبات المعركة الإسلامية ، إنها معركة ضِدَّ الجهل والظلام ، اللذيْن كانا يطبقان على العالم آنذاك .

ينتحى الفارس ركنًا من السوق ، تظلله شجرة كبيرة ، يجلس ليتلوَ آياتٍ من القرآن الكريم ، ويشرحَ ما يخفى على الناس ، بعد أن اجتمعوا حوله .

لقد سحرهم بلطف حديثه ، وحسن مَعْشَرِه . لم يأت مبشِّرًا يستغل حاجة الشعوب ، فيدعوهم إلى دينه ، وإنما أتاهم وبين يديه مصحف شريف ، يرتل منه آيات بينات ، وبذلك كسب لدينه أعدادًا وأعدادًا ، وبروح التسامح لم يخجل من أن يعلِّم وأن يتعلم ، إنه معلم فى النهار ، وتلميذ فى الليل . يتعلم لغة أهل هذا البلد ، وينهل من معارفهم ، إنه سر قادة العرب وعلمائهم .

يأتي الخليفة هارون الرشيد بعد فتح عمورية ، ويطلب تسليم جميع المخطوطات الإغريقية ، ويدعو العلماء والمترجمين إلى دار الكتب لترجمة هذا التراث الإنسانى ، الذى كاد أن يندثر مع ألسنة النيران أثناء المعارك الحربية .

وهذا هو الخليفة المأمون ، وقد انتصر على قيصر بيزنطة ، يطالبه بتسليم كتب الفلاسفة والحكماء كشرط من شروط التسليم ، إنها ذخيرة من المعارف الإنسانية ، تحمل مسئوليةَ الحفاظ عليها الدولةُ الإسلامية ، لقد أحالوا كلَّ مخطوط إلى الحياة مرتين ، مرة بالترجمة ، ومرة بالنسخ ، حتى خرجت هذه العلوم بلغة عربية .

لقد أُغْدِقَت العطايا والهبات على المترجمين ، حتى وصلت جوائزهم فى عهد الخليفة المأمون إلى وزن الكتاب ذهبًا ، لقد قدَّروا العلم ، وقدَّروا جهد العلماء ، فكانت هذه النهضة التى ملأت أرجاء الدنيا .

كانت سمةً فى ذلك الوقت أن يُقام فى كل مدينة إسلامية مركزٌ علمى ، يقصده الدارسون من أنحاء القرى المجاورة ، ولم ينته القرن الثانى الهجرى حتى بلغت دور الكتب فى مدينة واحدة أكثر من مائة دار ، وكانت المكتبة الصغيرة منها تحوى أربعين ألف كتاب ، وكانت مكتبةُ الخليفة العزيز بالله الفاطمى تحوى مليونًا وستمائة ألف مخطوط .

هكذا كان حالُ رجال العلم والسياسة من العرب ، وجَّهوا عنايتهم للكتب والعلوم ، وتسابقوا فى إنشاء المدارس فى المدن والقرى ، يتفاخر الواحد منهم بأنه فتح مدرسة فى هذه القرية أو تلك ..

وبغياب منّا نحن ، انقضّ العلماء في الغرب على هذه العلوم ، ونسبوها لأنفسهم ، وإذا بنا نشاركهم هذا القول الخاطىء .

إن مملكة روجر النورماندى فى صقلية ، أو مملكة فردريك فى ألمانيا ، لم تزدهر إلا حينما أتى المستشارون العرب ، ينظّمون لهم إدارة البلاد ودواوينها ، وينقلون إليهم نظام بيت المال والضرائب والتجارة وغيرها .

إن مهمة الجيل الجديد من الشباب العربى هى البحث عن الحقيقة ، والنهوض بأركان التطور ، حتى نأخذ مكان الصدارة من جديد .

٤ - فى علم الرياضيات :

يقول العالم العربى ابن خلدون فى كتابه « مقدمة ابن خلدون » : « العلوم العقلية تمثل طبيعة الإنسان ، من حيث كونه مفكرًا ، وقد عرفت هذه العلوم منذ القدم بعلوم الفلسفة والحكمة » .

وعلوم الحكمة كما حددها ابن خلدون أربعة :

- علم المنطق ، وهو علم يعصم الذهن من الخطأ فى البحث عن الأشياء المجهولة .

- علم الطبيعة ، وهو الذى يدرس المحسوسات من معدن ونبات وحيوان ، وأجسام فلكية ، وحركات طبيعية للإنسان نفسه .

- العلم الإلهى ، وهو الذى يجعل الإنسان مندفعًا نحو الفكر ، باحثًا عما وراء هذه المخلوقات ، وردّها إلى خالقها .

– العلوم النظرية ، وهى التى تجعل الإنسان علميًّا فى البحث عن ماهية هذه المخلوقات .

– أما علوم الفلسفة ، فتشتمل على أصول العلوم الإنسانية ، ومنها علم الحساب وعلم الهندسة .

ولقد تنبه العلماء العرب الأوائل إلى أهمية علم الحساب ، كأساس لكثير من العلوم ، وأولَوْه اهتمامًا كبيرًا ، حتى أبرزوه على شكل لم يخطر على بال أحد من المتقدمين ، وأصبح علم الرياضيات الأساس الذى يُبْنَيتْ عليه حلولُ كثير من المعادلات الرياضية والهندسية ، وغيرها من العلوم .

لقد اتسعت رقعة الدولة الإسلامية بعد الفتوحات ، وأصبح لها اتصال مباشر مع العالم ، فاهتم العلماء العرب بعلوم الرياضيات ، باعتبارها المدخل الرئيسى لكثير من العلوم ، حيث ارتبطت علوم الحساب بتنظيم الزكاة ، وحقوق بيت المال والمواريث ، وحساب الأيام ، وتحديد مواقيت الصلاة والصيام والحج ، وغيرها من الأمور الدينية .

قيل إن العرب أخذوا الأرقام من الهنود ، ولكنهم طوروا طريقة كتابتها ، وابتكروا (الصفر) الذى ربط بين العمليات الحسابية الدقيقة ، التى كان الناس يجهلونها .

ولقد بذل العلماء العرب جهودا لا تُنْكَر فى سبيل نشر الطريقة العربية لكتابة الأعداد ، وقراءتها ، وترتيبها فى عمليات الجمع والطرح والضرب ، كما صهر العلماء العرب الطرائق المختلفة فى بوتقة واحدة ،

أساسها التطبيق المناسب للنظام البشرى ، بعد أن كان هناك : حساب اليد ، وحساب العقود (والعِقد عشرة ومضاعفاتها) ، والحساب الهوائى (حساب الذاكرة) ، والجداول الستينية وغيرها .

وأول هؤلاء العلماء الخوارزمى ، الذى مهد للعلماء العرب بعْده قيامَ علم الجبر ، تقول المستشرقة الألمانية « زيغريد هونكه » فى كتابها شمس العرب تسطع على الغرب » :

لقد غنم العرب غنيمة كبرى ، حين وقعوا على الأرقام الهندية ، ولكنهم – مع ذلك – برهنوا على أنهم كانوا يتمتعون بفهم عميق ، وإدراك واسع ، عندما اكتشفوا فوائد هذه الأرقام ، وكيفية استخدامها فى مكانها الصحيح .

والواقع أن العرب ابتكروا الأرقام منذ أول عهدهم بالكتابة على الطريقة النبطية القديمة ، حتى تحولت إلى العربية .

إن حبَّ العرب علمَ الحساب دفعهم إلى حل معضلات حسابية كان من الصعب حلُّها ، ولكن العلماء العرب تمكنوا من إرساء علوم الرياضيات من خلال علم الجبر الذى اكتشفوه ، ومن خلال حساب المثلثات ، وحساب التكامل والتفاضل ، وكذلك الكسور العشرية .

يا لهم من آباء !!

ويا لنا من أبناء !!

٥ - فى علمَى الفلك والجغرافيا :

كم كان للنجوم وأحاديثها وتنبؤاتها من تأثير على حياة عرب الصحراء !!

لقد كان هذا التأثير أكثر كثيرًا مما كان لها فى حياة الإغريق والرومان وغيرهما ، إنهم قوم رُحَّل من فضاء فسيح ، اعتبروا قبة السماء خيمتهم المتألقة ، وزاد من تألقها هواء الصحراء الجاف ، وزيّنتها النجوم اللوامع ، ولم يكن أمامهم من هذه الصحراء الممتدة ، وبحور رمالها وكثبانها ، إلا بزوغ الشمس وغروبها ، وطلوع القمر وأفوله ، لقد اتخذوا من مواضع سير النجوم عمادًا يقيسون به وجودهم الزمانى ، ووجودهم المكانى .

هذه مشاهد من حياة العرب الأوائل ، تختلف عما أطلقه البابليون أو الرومان لصور النجوم ، حيث منحوها أشكال الحيوانات ، وسموها بأسماء ، فالعرب لم يتخيلوا صورا للنجوم ، بل سموا الكواكب بأسماء ، عرّفوها أكثر من اليونانيين ، إنهم لم يسموا النجوم فحسب ، بل تعدَّوْها إلى الرموز الفلكية .

وقد أحسن الخليفة أبو جعفر المنصور (١٣٦ - ١٦٩ هـ) صنعًا عندما أمر بترجمة كتب الأمم الأخرى من الفارسية ، واليونانية ، والهندية ؛ وذلك لدراسة ظواهر النجوم والأفلاك ، مما جعل ذخيرة طيبة من المعلومات بين أيدى العلماء والدارسين .

ومن الأوائل فى الفلك :

– الفزارى المتوفى سنة ١٨٠ هـ

– والخوارزمى ، والكندى ، والبَيْرُونى ، والقزوينى ، وابن الشاطر وغيرهم كثير .

وفى علم الجغرافيا كان لهم باع طويل ، فقد عرفها العرب قبل الإسلام ؛ لأنهم كانوا أهل تجارة بين الشمال والجنوب ، والشرق والغَرب ، استخدموا السفن فى رحلاتهم البحرية على الخليج العربى ، والبحر الأحمر ، والبحر الأبيض المتوسط .

وكان الشعر مصدرا ثريًّا ، استقى منه الجغرافيون معلوماتهم ، لقد نشأت الدراسات الجغرافية بمفْهُومها العلمى بين العرب فى فجر الإسلام ، وشملت الجغرافيا الفلكية والطبيعية والسياسية والاجتماعية .. نظرًا لارتباط هذه الدراسات بالمسائل الفقهية ، كتعيين القبلة للصلاة ، ومعرفة الدروب المؤدية إلى بيت الله الحرام وغيرها .

ولا شك أن النفوذ السياسى والاقتصادى للدولة الإسلامية بعد الفتوحات الكبرى ، كل هذا زوَّد علماء الجغرافيا والمهتمين بها بمعلومات واقعية ؛ فقد كانوا فى حاجة إلى معرفة الطرق التى تربط الأقاليم الإسلامية ، وتحديد الأميال ، وحفر الآبار للسُّقْيَا .

وكان المرصد الفلكى ببغداد فى عهد الخليفة المأمون ، الذى تحول إلى مدرسة رياضية فلكية ، تخرَّج فيها كثير من علماء الفلك .

ولم ينته القرن الثالث الهجرى ، حتى أصبح العلماء العرب أقدرَ الناس على علم الجغرافيا .

وبفضل أبحاثهم التى كانت تقوم على منهج علمى دقيق ، يقول بأن الأرض مستديرة ، وأنها تشغل المركز الرئيسى للكون ، تأكد هذا المعنى الذى طرحناه .

وقد وضع (ابنُ خِرْدَاذْبَة) الذى كان يلقَّب (أبا الجغرافيا) وضع نمط الجغرافيا ، وأسلوبها فى اللغة العربية ، حين تجاوز فى كتابه (المسالك والممالك) حدود الأمة العربية والإسلامية إلى حدود الممالك ، والشعوب الأخرى المجاورة ، ووصف حدود الأجزاء المغمورة من العالم ، ووصف القارات الأربع .

ومن آبائنا العلماء الأوائل نذكر :

- ابن خرداذبة الذى ذكرناه قبلا . والمتوفى سنة ٢٨٠ هـ
- اليعقوبى المتوفى سنة ٢٨٤ هـ
- المسعودى المتوفى سنة ٣٤٥ هـ
- المقدسى المتوفى سنة ٣٩٠ هـ
- البيرونى المتوفى سنة ٤٤٨ هـ
- والشريف الإدريسى المتوفى سنة ٥٦٤ هـ ، الذى دعاه الملك روجر ، إمبراطور صقلية ، وطلب إليه أن يؤلف كتابا يصف البلدان ،

فكان كتابه (نزهة المشتاق فى اختراق الآفاق) . وتوّج هذا العمل بوضع خريطة للعالم ، نحتها على لوح من الفضة .

لقد قاموا بمجد عظيم .

فهل نقوم نحن بمجد عظيم آخر ؟ !

٦ – في طب العيون :

اهتم العلماء العرب بدراسة العين ، من النواحى التشريحية والمرضية والعلاجية ؛ ولعل أسباب ذلك كان انتشار أمراض العيون بسبب البيئة الجغرافية .

ولقد كان جهدهم فى الدراسة التشريحية والعلاج مبكرًا ، بل ومتميزًا ، فإن الوصف التشريحى للعين فيما قبل القرن العاشر الميلادى ، أو بعده – لم يختلف عن الوصف التشريحى للعين فى المراجع المعاصرة ، وما تزال أكثر المصطلحات التى استخدمها رواد هذا العلم من العرب مستخدمة حتى اليوم ، إما بلفظه العربى ، أو بمعناه فى اللغات الأجنبية ، بل إن المؤلفات التى وضعها الأطباء العرب الأوائل فى طب العيون ، تشريحًا وعلاجًا ، ظلت حتى النهضة الأوروبية الحديثة مصدرًا رئيسيًا لدراسة علم طب العيون .

وقد كان طبيب العيون يُعْرَف عند العرب القدامى باسم « الكحّال » ، كما اشتهرت طبيبات فى العصر الأموى ، ومن البارزات منهن الطبيبة « زينب الأزدية » ، طبيبة بنى أزد ، فقد ذاعت شهرتها حتى كان الناس يقصدونها من جميع الأقطار .

تقول المستشرقة الألمانية (هونكه) : « لقد بلغ العرب فى فرع طب العيون مبلغًا عظيمًا ، تفوقوا فيه على اليونان » .

وتضيف قائلة : « لقد ساعد العربَ فى ذلك اكتشافاتُهم الناجحة لعلم البصريات ، الذى يعد علمًا عربيًّا ، دون أية مبالغة .

ولقد كان كتاب « حنين بن إسحق » المسمى « المقالات العشر عن العين » أول كتاب تطرَّق إلى علم طب العيون ، وقد بقيت مؤلفات على بن عيسى ، وعمار بن على بن منصور – المرجع الأول لطب العيون فى أوربا حتى القرن الثامن عشر الميلادى .

وقد قدَّمت مصر ، بلدُ أبحاث أمراض العيون ، أدوية مستخرجة من نباتات مصرية للاستعمال ضد أوجاع الرأس ، وغشاوة العدسة . وبجانب ذلك كانت أبحاثهم مصحوبة بدراسة منهجية ، فقد كان الطبيب أبو الحسن السعدى من أشهر أطباء العيون فى بداية القرن السابع الهجرى ، فقد كان ناظر الكحالين فى البيمارستان الناصرى بالقاهرة ، ثم ناظر الكحالين فى بيمارستانات النورى بدمشق .

إنه والد الطبيب أحمد السعدى ، أشهر طبيب عيون ، وأعظم مؤلف فى تاريخ الطب العربى ، إنه صاحب كتاب « عيون الأنباء فى طبقات الأطباء » الذى يعد مرجعًا فى الطب .

وهذا هو أبو على الحسن بن الهيثم المتوفى سنة ٤٣٠ هـ ، مؤسس علم البصريات ، الذى فاقت نظرياته فى علم البصريات حد التصور ، لقد أثبت خطأ الادعاء القائل بأن العين المجردة ترسل أشعة إلى الأشياء

التى تريد رؤيتها ، حين قال : ليس هناك من أشعةٍ تنطلق من العين لتحقق النظر ، بل إن الأشياء المرئية هى التى تعكس الأشعة على العين فتبصرها .

لقد حقق بهذا اكتشافًا عظيمًا ، جاوز به علوم الأوائل فى حقيقة الحواس الخمس .

وهو أول من أجرى تجارب بواسطة نوع من « آلة الثقب » وهى صورة حقيقية لآلة التصوير ، كما اخترع أول نظارة للقراءة ، وبذلك يكون أول مؤسس لعلم البصريات .

لقد سيطرت نظرياته العلمية فى علوم الفيزياء والبصريات على العلماء الأوروبيين ، ابتداء من روجر بيكون الإنجليزى ، إلى فيتلو الألمانى . أما ليوناردو دافنشي الإيطالى ، مخترع آلة التصوير ، فقد تأثر تأثرًا بالغًا بالعلماء العرب ، وأوحت إليه نظريات ابن الهيثم بمخترعاته . وما تزال مسألة نقطة التقاء الصورة ، التى تعكسها المرآة المخرّمة بالدوائر تسمى بالمسألة الهيثمية .

إن أحدا لا يستطيع إنكار مجهودات هؤلاء العلماء العرب ، وعلينا أن ننظر إلى الماضى برضى ، ونتطلع إلى المستقبل بأمل ، ولن يكون ذلك إلا بالجهد والعمل .

٧ – فى أدب العيون :

إذا كان للإنسان حواس خمس ، تتراوح وظائفها بين التأثير والتأثر ، وبين الإرسال والاستقبال ، فإن العين تقوم بالوظيفتين معًا : التأثير

والتأثر ، والإرسال والاستقبال ؛ وذلك لأن العين نقطة الالتقاء ، ونافذة الانتهاء ، إنها مرآة كل النوازع والخفقات ، خفقات القلب من ألم وأمل ، ونوازع الفكر من مبدأ أو عمل .

وقد عبَّر عمر بن أبى ربيعة (٩٣ هـ - ٧١٢ م) عن هذا المعنى بقوله :

أشارت بِطَرْف العين خيفةَ أهلها   إشـــارةَ محزون ولـــم تتكلم
فأيقنتُ أن الطَّرف قد قال مرحبًا   وأهـــلاً وسهلاً بالحبيب المتيَّم

وقال أبو نواس أيضا :

وذاتِ خــدٍّ مُوَرَّدْ   فَضِيَّــة المُتَجَــرَّدْ
تأمَّلُ العينُ منهـــا   محاسنًا ليس تَنْفَدْ
فبعضُه قــد تناهىِ   وبعضُـــه يتولَّـــدْ

وقال أحد الشعراء :

نظرُ العيون إلى العيون هـــو الذى   جعـــل الهـلاكَ إلى الفؤاد سبيلاً
ما زالت اللحظاتُ تغــــزو قلبه   حتى تمـــــــايلَ بينهنَّ ، قتيلاً

والدمع فى العين ليس وقفا على المآسى والأحزان ، أو لوعة المحبين وأشجانهم ، بل تمتد إلى غيرهما من الأحوال ، فهى لغة معبِّرة ناطقة ، وإن كانت فى تعبيرها صامتة .

قال العباس بن الأحنف يخاطب محبوبته فى بُعدها :

جرى السيل فاستبكانىَ السيلُ إذ جرى
وفاضت لـــه مـن مقلتىَّ غُرُوب
ومـا ذاك إلا حين أيقنتُ أنـــه
يمـــرُّ بـواد أنت منـــه قريب

أو كما يقول الشريف الرضى :

يا ظبيةَ البـــانِ ترعى فى خمائله   ليَهْنِكِ اليومَ أن القلبَ مرعــاك
الماءُ عندكِ مبذولٌ لشـــاربه   وليس يُرْويكِ إلا مَدْمَعى الباكى

ويقول أبو تمام ، فى وصف عيون العاشقين ، وكيف أنها تأثرت بالدموع الحارة ، فى الوقت الذى اطمأنت فيه عيون العاذلين :

فأما عيونُ العـــاشقين فأَسْخَنَتْ   وأما عيون الكاشحين فقَـــرَّتِ
فلم أرَ مثلى كان أوفى بعهدهـــا   ولا مثلَها ، لم تَرْعَ عهدى وذمتى

وقال سوَيْدُ بنُ أبى كاهل :

تمنـح المـــرآةَ وجهًا واضـــحًا   مثلَ قرن الشمس فى الصحو ارتفعْ
صـــافِى اللونِ ، وطرفًا ساجيًا   أكحـــلَ العينين ما فيـــه قمعْ

والقمع الضخامة والورم

وخلاصة ذلك أن العرب منحوا العيون قدرة على الإفصاح ، من خلال لونها ونوعها ..

فهناك العيون التى تأمر ،والعيون التى تأسِر

هناك العيون الملهمَة ، والعيــون المبهَمــة

هناك العيون ذاتُ النظرات اللطيفة ، والعيونَ ذات الشَّذَرَات المخيفة . . .

هناك العيون اللامعة ، والعيون الدامعة

هناك العيون النائمة ، والعيون الحالمة

هناك العيون البريئة ، والعيون الجريئة

. . . العيون الثاقبة ، والعيون المحاربة

. . . العيون البارقة ، والعيون الخارقة

٨ - في الطب والصيدلة :

كان الأوائل من آبائنا العرب يتعاطون العلاج بوصفات من الأعشاب ، يقوم على تحضيرها أناس توارثوها عن الآباء والأجداد ، وكان ممن اشتهروا بممارسة العلاج في ذلك الوقت : الحارث بن كِلْدَة ، وحُذَيْم وكان بارعًا في العلاج بالكيّ . وحماد الأزْدي ، وكان مشتهرًا بجراحة العظام . وأبو رُمْثَةَ التميمي ، وكان مشتهرًا بعلاج الحالات النفسية ، وزينبُ الأزديَّة وكانت متخصصة في أمراض العيون .

ولما امتدت الفتوحات في عهد الخليفة عمر بن الخطاب رضي الله عنه ، وفُتِحَت مدينة جُنْدِ يسابور سنة ١٩ هـ ، كان بهذه المدينة أكبر مركز للدراسات الطبية ، وكان يقوم على أمر هذا المركز طائفة من العلماء الذين هاجروا من الشام ومصر ، فِرَارًا من الاضطهاد الروماني . كان

الحَكَمُ بن عيسى فى عهد الخليفة معاوية بن أبى سفيان قَيِّمًا على أول مستشفى أنشأه الخليفة الوليد بن عبد الملك ، ويقال إنه أول مستشفى أنشئ فى الدولة الإسلامية ، كان يقرر معاشًا لأصحاب العاهات ؛ ليحميهم من التسول ، كما كان يعيِّن للأعمى دليلاً يساعده .

وأثناء خلافة هارون الرشيد (١٦٩ - ١٩٣ هـ) أُولِّى عناية كبيرة لترجمة الكتب الطبية إلى اللغة العربية ، فلم يمض وقت طويل حتى كانت العلوم الطبية تُقْرَأُ ، وتُدَرَّسُ باللغة العربية ، حيث عُرِّبَت المصطلحات العلمية .

كانت ثقة الأطباء العرب بأنفسهم وعلمهم بالغة ، فقد كان الطبيب علىُّ بنُ العباسِ يقول لبعض الأطباء من تلاميذه :

« إننى لم أجد بين مخطوطات القدامى من اليونانيين وغيرهم كتابًا واحدًا كاملاً ، يحتوى على كل ما هو ضرورى لتعلم فن الطب .. بقراط يكتب باختصار ، وأكثر معاييره غامضة ، وبحاجة إلى تعليق ، جالينوس وضع كتبًا كثيرة الشهرة ، ولم أجد منها كتابًا يصلح كل الصلاح لدراسة الطب » .

لقد عرف العلماء العرب كيف يُقَدِّمون العلوم للطلاب فى أشكال سهلة ، يستطيعون هضمها .

وفى مجال صناعة الأدوية والعقاقير الطبية ، كان لآبائنا الأوائل باعٌ طويل ، لقد كان الطبيب يعالج مريضه ، ويُعِدُّ له الدواء إذا كان مركبًا ،

أما الأدوية النباتية المفردة ، فكان يشتغل بها العشّابون ، وهم فى هذا روّاد علم النبات .

إن العرب أول من وصفوا القهوة كدواء للقلب ، أو علاج اللوزتين ، كما وصفوا نبات الكافور لإنعاش القلب ، كما خفّفوا بعض العقاقير التى كان يصفها اليونانيون ، بأن مزجوها بعصير الليمون أو البرتقال ، كما أضافوا إليها القَرَنفُل والزنجبيل ، واستخدموا طريقة التقطير ، وأكبر دليل على ذلك ما نراه اليوم من كلمات ، وأسماء عربية ، تدور على ألسنة كل عالم كيماوى .

لقد وضع جابر بن حيان علم الكيمياء ، واستحضر أبو بكر الرازى العقاقير الطبية الجديدة ، من خلال تجاربه الكيميائية بالتقطير والتحليل ، وكان يقوم بتجربة هذه العقاقير على الحيوانات ؛ حتى يتأكد من نتائج أبحاثه واكتشافاته .

ولم يكن للصيدلى أن يزاول المهنة إلا بعد اختبار يُجْرِيه معه فريقٌ من الأطباء ، على رأسهم عميد ، أى رئيس لهم ، مشهود له ، فإذا نجح المتقدم للامتحان فى علم الصيدلة ، أُعْطِىَ رخصة ، وسُجِّل اسمهُ فى جداول أطباء الصيدلة .

وكان أحد الأطباء يقوم بين وقت وآخر بالتَّفْتِيش على الصيدليات ، وأماكن تحضير الدواء ، ليقف بنفسه على اتباع التعليمات الرسمية ، ومن خلال إبداعات الآباء العرب الأوائل ، ارتفع نجم علماء العلوم الطبيعية فى أوروبا فى العصور الوسطى .

– العالم الفرنسى / فالسون روبوفيه ، المتوفى سنة ١٢٦٤ م .

– والعالمان الأسبانيان / ريموندس لوللمس ، المتوفى سنة ١٣١٦ م .

– وأرنولدو الفيلانونى ، المتوفى سنة ١٣١٣ م .

– والنبيل الألمانى / ألبرت بول شتات ، المتوفى سنة ١٢٦٠ م .

.. لقد درسوا الآثار العربية فى ميدان علم العقاقير ، فترة ما قبل جامعة باريس ، فأكدوا النتائج التى وصلت إليها الأبحاث العربية .

وظل التأثير متغلغلاً فى أعماق الحياة الأوروبية

نحن لا نبكى الماضى

فبكاء الماضى مرفوض فى عصرنا

ولكننا نوقظه ، لكى ننهض به من جديد ، ونأخذ مكاننا تحت الشمس .

٩ – الإخوة الثلاثة

أبناء موسى بن شاكر

يعتبر معظم المؤرخين فى حقل الرياضيات أن أصل علم الهندسة مصرى ، حيث إن قدماء المصريين استعملوه فيما بنوا وشيدوا .. فى بناء السدود والقنوات التى تساعد على منع فيضان نهر النيل ، وقياس السطوح ، وتوجد مخطوطة فى المتحف البريطانى بلندن ، كتبها أحمس » ، أحد فراعنة مصر ، ويرجع تاريخها إلى ما قبل ٤٠٠٠ سنة

– تحتوى على قوانين ومعادلات للحصول على مساحات الحقول ، التى توحى بطابعها الهندسى .

وقد اهتم العلماء العرب اهتمامًا كبيرًا بعلم الهندسة ، حيث تُرْجِمَ كتاب إقليدس فى الهندسة ، لأول مرة إلى اللغة العربية ، فى عهد الخليفة العباسى « أبو جعفر المنصور » .

وكانت علوم الهندسة مرتبطة إلى حد ما بعلوم الجغرافيا والفلك ، حتى تفرغ العالم « يحيى بن أبى منصور » المتوفى سنة ٢١٨ هـ ، وكان أحد أعمدة الترجمة فى دار الحكمة ، تفرغ يحيى بن أبى منصور ، مشاركًا تلاميذه أبناء موسى بن شاكر ، محمد وأحمد والحسين ، البحثَ فى علوم الهندسة .

كان محمد أكبر الإخوة من أبناء موسى بن شاكر – ذا خيال واسع ، وذكاء كبير ، وفطنة ملحوظة .

قام مع أخويه بإجراء قياسات فاقت كل قصور ، حتى إن العالم « البيرونى » – بعد مرور مائة وخمسين سنة – يقول :

« إننى أرى أن بوسع المرء أن يعتمد على ما قام به أبناء موسى بن شاكر من أبحاث وملاحظات وقياسات ؛ ذلك أنهم وضعوا كل إمكاناتهم المادية والمعنوية ، فى سبيل أبحاثهم العلمية الدقيقة » .

انصرف أكبرهم محمد إلى علوم الفلك انصرافًا كليًا ، بينما انصرف أخوه أحمد إلى الهندسة الميكانيكية ، والتركيبات الآلية المتحركة ،

كما ابتكر معدات التقطيع والتوصيل ، وآلات الرفع ، ومايلزمها من معدات لفتت أنظار العلماء ، الذين يحثون عن تنفيذ آلات الرصد .

فكان الإخوة الثلاثة مجتمعين ، هم المنفذون لعملية بناء المراصد .. ابتكر أحمد ألعابًا ميكانيكية ، يجد فيها الطفل متعة ، ويجد فيها كل من الفلاح ، وربة البيت فائدة ، تمثلت هذه الأعمال فى تركيبات خزانات للمياه فى البيوت ، وآلات رى للمزارع .

كما ابتكروا مجتمعين النافورات التى تزين القصور ، والحدائق العامة ، وقناديل للإضاءة ، يُصَبُّ فيها الزيت تلقائيًا ، ولا تطفئها الرياح ، إلى جانب آلات دقيقة لقياس السوائل وغيرها .

لقد ابتكر (أحمد) مع (محمد) ساعة كبيرة من النحاس ، تقوم بأدق الحسابات فى عام ١٩٢هـ . ثم قاموا مجتمعين بابتكار ساعة ، تعمل بالطاقة الشمسية ، كانت دائرية الشكل ، تُحْدِثُ إيقاعًا موسيقيًا فى كل ساعة .

وقد برع الأخ الثالث « الحسين » فى الهندسة ، وأسهم بنصيب كبير فى تقدم هذا العلم ، كان يقول عن نفسه :

« كلما واجهتنى مشكلة مستعصية ، أحسست كأن العالم مظلم من حولى ، وأصابنى دُوَارٌ ، كأننى أمر بحُلْم » كانت هذه صفات العلماء من بيت موسى ، هذه المدرسة العريقة التى تخرج فيها عباقرة فى فنون كثيرة ، لقد كانوا يُغْدقون على العلماء والمترجمين والباحثين ، فتخرَّج فى هذا البيت :

- حنين بن إسحق وأبناؤه .

- ثابت بن قرَّة ، الملقب بمهندس العرب ، فهو الذى صحح ترجمات من سبقوه ، وألف أكثر من ١٥٠ كتابًا باللغة العربية ، واللغة السريانية ، في الفلك ، والرياضيات ، والطب .

وتبوأ المكانَ الأوَّلَ بين العلماء العرب والمسلمين ..

إن العلم فن الحياة ..

والفن إبداع

ولقد كان هؤلاء جميعًا من المبدعين الموهوبين .

وبعــد

كانت هذه قطرات من التاريخ ، لأن التاريخَ كلَّ التاريخِ ، مصدرُ إلهام العالِمِ والأديب ، وما يبدعُه العالمُ قصيدة بمعنى أو بآخر ، تلتقى فى جانب من جوانب الحياة بالقصيدة التى يبدعها الشاعر .

التاريخ قصائد تبحث عن شعراء :

إن قراءة التاريخ مصدر ثرى للإبداعات كلها ، وخصوصا الشعر ؛ فهو تلخيص لمسيرة العالم ، يستطيع الشاعر - من خلاله - أن يستخرج المغْزَى والحكمة .

وقد يسأل سائل : ما علاقة التاريخ بالشعر ؟ وما الفائدة التى تعود على الشعراء من قراءة التاريخ ، وهم أهل شعور ووجدان ، وليسوا باحثين ، ولا دارسين ؟

والإجابة الواضحة القريبة أنه لا توجد مادة مفيدة للشعر والشعراء مثل مادة التاريخ ، إنه يقدم لنا صورة من الحياة ، صفحات مملوءة بالأحداث والمواقف ، والصراعات والشخصيات .

وفى معظم الأحيان لايلتفت التاريخ إلا للأحداث الهامة ، والشخصيات الفاعلة ، والمواقف الحادة ، التى لا فتور فيها .

إن التاريخ يعطينا لحظات النصر والهزيمة ، ولحظات المحنة والنعمة . إنه زاد لا ينتهى من المشاعر الإنسانية فى صورة مستمدة من هذا كله . إن التاريخ ليس فكرًا تجريديًا ، ولكنه شخصيات حية ، ومواقف نابضة .

... وقد أدرك عِظَمَ التاريخ عددٌ من كبار الشعراء ، فانصرفوا إلى قراءته ، وتقليب صفحاته ، واستطاعوا أن يستفيدوا فائدة عظمى من العناصر الشعرية فى التاريخ ، كمادة لإبداعهم ، بعد أن يُخضعوه للتصفية والاختيار .

لم يكن هدف هؤلاء الشعراء إعادة صياغة أحداث التاريخ شعرًا ، بل كان الاتجاه إلى التأمل فى هذه الأحداث ، وتفسيرها تفسيرًا جديدًا . وعندما نتأمل أعمال الشاعر الإنجليزى العظيم « شيكسبير » نجد أن مسرحياته الشعرية المستمدة من التاريخ كثيرة ، وتحمل أهمية بالغَةً ، بل إن عددًا من مآسيه الكبرى المعروفة مثل : هاملت ، وعطيل ، وماكبث ، والملك لير .. كلها جاءت نتيجة قراءاته الواسعة فى التاريخ ؛ رغم أنها لا تتعرض للتاريخ بشكل مباشر ، ففى هذه المآسى جوانبُ موجودة فى

سطور التاريخ المتفرقة ، وبعضها لا يوجد نَصُّه ، بل يوجد ما يشبهه في المواقف والأبطال ، وحياة الشعوب في مراحلها المختلفة .

وهذه صفحة من التاريخ تشدُّنَا إلى عالم الشعر أكثر من كونها سردًا تاريخيًّا ...

في كتاب « مؤرخ المغول الكبير رشيد الدين فضل الله الهمذاني » صفحة أوردها الدكتور « فؤاد الصياد » في أحد كتبه ، يصور فيها هولاكو عندما التقى بالخليفة المستعصم بعد دخول بغداد ، تقول الصفحة : « قصد هولاكو قصر الخلافة ، وجلس في الميمنة ، واحتفل مع الأمراء بذلك اليوم ، وأمر بإحضار الخليفة المستعصم ، وقال له : أنت المضيف ، ونحن الضيوف ، فيجب أن تقوم بواجب الضيافة . صدَّق الخليفة القول ، وأصدر أوامره بفتح الخزائن ، وأخرج منها ألفين من الثياب ، وعشرة آلاف دينار ، ونفائسَ ومرصعاتٍ وجواهرَ ، قدمها هدية إلى هولاكو ؛ ولكن هولاكو وزعها على أتباعه ، ثم قال للخليفة : هذه الأموال التي تملكها على سطح الأرض ، أمرها واضح ، إنها غنيمة ، ولهذا فهي من نصيب جنودنا . ثم قال هولاكو : والآن ، اكشف لنا عن الأموال والدفائن ، ما هي ؟ وأين توجد ؟

فاعترف الخليفة بوجود حوض مملوء بالذهب وسط القصر ، فلما حفروا وجدوه مملوءًا بالذهب الإبريز ، وكانت كل قطعة منه تزن مائة مثقال .

هنا أمر هولاكو بحرمان الخليفة من الطعام ، فلما أحس بالجوع طلب

طعامًا ، فقدم له هولاكو طبقًا مملوءا بالذهب فقال الخليفة : كيف يمكن أن آكل الذهب ؟

هنا رد هولاكو .. إذا كنت تعرف أن الذهب لا يؤكل ، فلم احتفظت به ، ولم توزعه على جنودك ؛ حتى يصونوا ملكك من هذا الجيش المغير؟ ولماذا لم تحوِّل أبوابك الحديدية إلى سهام ، وتسرعَ لتَحُولَ دون عبورى نهر جيحون ؟ فقال الخليفة : هكذا كان تقدير الله .

فرد عليه هولاكو : وما يجرى عليك إنما هو تقدير الله وانتهى الأمر بقتل الخليفة ، والقضاء على الدولة العباسية .

... إن التاريخ رصيدٌ هائل لكل التجارب الإنسانية ، تجارب الإبداع العلمى فى دراسة تاريخ العلم ، وتجارب الإبداع الأدبى ، لأنه ضرورة لكل صاحب موهبة ، أو قدرة على الإبداع .

خــــاتمة

لعلى بعد أن قدمت فى الصفحات السابقة قطرات من الضوء على الجذور الثقافية للإنسان المصرى ، أكون قد وضعت بين يدى القارىء ما يجعله يطل على الجذور ، ويتعهدها حتى تخصب ، وتنمو ، فى وطن امتد ضياؤه إلى كل أرجاء المعمورة يومًا ، وما تزال تعيش عليه حتى اليوم .

وهو اليوم ينتظر منا أن نكون حملة المشاعل فى دنيا سريعة الحركة ، متنامية الفكر ، دنيا لا تحكمها الأميال والفراسخ ، ولا تؤثر فيها الكثرة العددية ، بقدر ما يحكمها مردود الأداء فى اللحظة والثانية والدقيقة ، ويؤثر فيها تصنيف الكثرة العددية فى القدرة على الأداء .

فهرس

صفحة

الفصل الثانى

صفحة

اقرأ فى هذه المجموعة

صوت أبي العلاء	د . طه حسين
أحلام شهر زاد	د . طه حسين
فى بيتى	عباس محمود العقاد
الشيخ الرئيس ابن سينا	عباس محمود العقاد
المهدى والمهدية	أحمد أمين
الصعلكة والفتوة فى الإسلام	أحمد أمين
خاتمة المطاف	على الجارم
أبو نواس	د . عبد الحليم عباس
دماء وطين	يحيى حقى
العشاق الثلاثة	د . زكى مبارك
سيكلوجية الجنس	د . يوسف مراد
النسيان	د . أحمد فؤاد الأهوانى
الحب والكراهية	د . أحمد فؤاد الأهوانى
الوجودية والإسلام	محمد لبيب البوهى
الأمن والسلام فى الإسلام	د . جمال الدين الرمادى
الغزالى	طه عبد الباقى سرور
الإمام المراغى	أنور الجندى
بنت قسطنطين	محمد سعيد العريان

طاغور	د . جميل جبر
طرائف من التاريخ	مصطفى الشهابى
شاعر الشعب	د . سامى الدهان
قصص الحب العربية	د . عبد الحميد إبراهيم
غرائب الرحلات	محمد عبد الغنى حسن
عود على بدء	إبراهيم عبد القادر المازنى
غرام الأدباء	عباس خضر
أبو زيد الهلالى	محمد فهمى عبد اللطيف
عبد الرحمن الجبرتى	خليل شيبوب
ليلى العفيفة	عادل الغضبان
نساء محاربات	صوفى عبد الله
أبو القَاسم الشابى	رجاء النقاش
جابر بن حيان	محمد محمد فياض
الصديقة بنت الصديق	عباس محمود العقاد
الكعبة على مر العصور	د . على حسنى الخربوطلى
غادة رشيد	على الجارم
الأحلام والرؤى	د . عبد العزيز جادو
النوم والأرق	د . أحمد فؤاد الأهوانى
جحا فى جامبولاد	محمد فريد أبو حديد
عمر بن عبد العزيز	أحمد زكى صفوت
نديم الخلفاء	عبد الستار فراج

الإمام المراغي	أنور الجندى
بنت قسطنطين	محمد سعيد العريان
شاعر الشعب	د . سامى الدهان
قصص الحب العربية	د . عبد الحميد إبراهيم
غرائب الرحلات	محمد عبد الغنى حسن
عود على بدء	إبراهيم عبد القادر المازنى
غرام الأدباء	عباس خضر
أبو زيد الهلالى	محمد فهمى عبد اللطيف
عبد الرحمن الجبرتى	خليل شيبوب
ليلى العفيفة	عادل الغضبان
نساء محاربات	صوفى عبد الله
أبو القاسم الشابي	رجاء النقاش
جابر بن حيان	محمد محمد فياض
الصديقة بنت الصديق	عباس محمود العقاد
الكعبة على مر العصور	د . على حسنى الخربوطلى
غادة رشيد	على الجارم
الأحلام والرؤى	د . عبد العزيز جادو
النوم والأرق	د . أحمد فؤاد الأهوانى
جحا فى جامبولاد	محمد فريد أبو حديد
عمر بن عبد العزيز	أحمد زكى صفوت
نديم الخلفاء	عبد الستار فراج

تيمورلنك	محمد محمد فياض
شيخ التكية	محمد عبده عزام
المدينة المسحورة	سيد قطب
نحن أولاد الغجر	أنيس منصور
هؤلاء عرفتهم	عباس خضر
الحب والكلمات	إسماعيل النقيب
رمضـانيات	مصطفى عبد الرحمن
وفى أنفسكم أفلا تبصرون	د. رشاد الطوبى
تنمية عادة القراءة عند الأطفال	يعقوب الشـارونى
أطفالنا فى عيون الشعراء	أحمد سويلم
مـعى (٢ جـ)	د. شوقى ضيف
توفيق الحكيم عملاق الأدب	د. محمد الدالى
حصاة فى بحر هائج	د. سيد حامد النساج
البرامج التربوية للطفل	أميمة جـادو
فمنهم من يمشى على بطنه	د. رشاد الطوبى
القصة فى الستينات	د. عبد الحميد ابراهيم
شوقى ضيف رائد الدراسات الأدبية	د. عبد العزيز الدسوقى
سيناء فى مواجهة الممارسات الإسرائيلية	قدرى يونس
قنـاة السـويس	جورج حليم

شاعر الشعب	د . سامى الدهان
قصص الحب العربية	د . عبد الحميد إبراهيم
غرائب الرحلات	محمد عبد الغنى حسن
عود على بدء	إبراهيم عبد القادر المازنى
غرام الأدباء	عباس خضر
أبو زيد الهلالى	محمد فهمى عبد اللطيف
عبد الرحمن الجبرتى	خليل شيبوب
ليلى العفيفة	عادل الغضبان
نساء محاربات	صوفى عبد الله
أبو القاسم الشابى	رجاء النقاش
جابر بن حيان	محمد محمد فياض

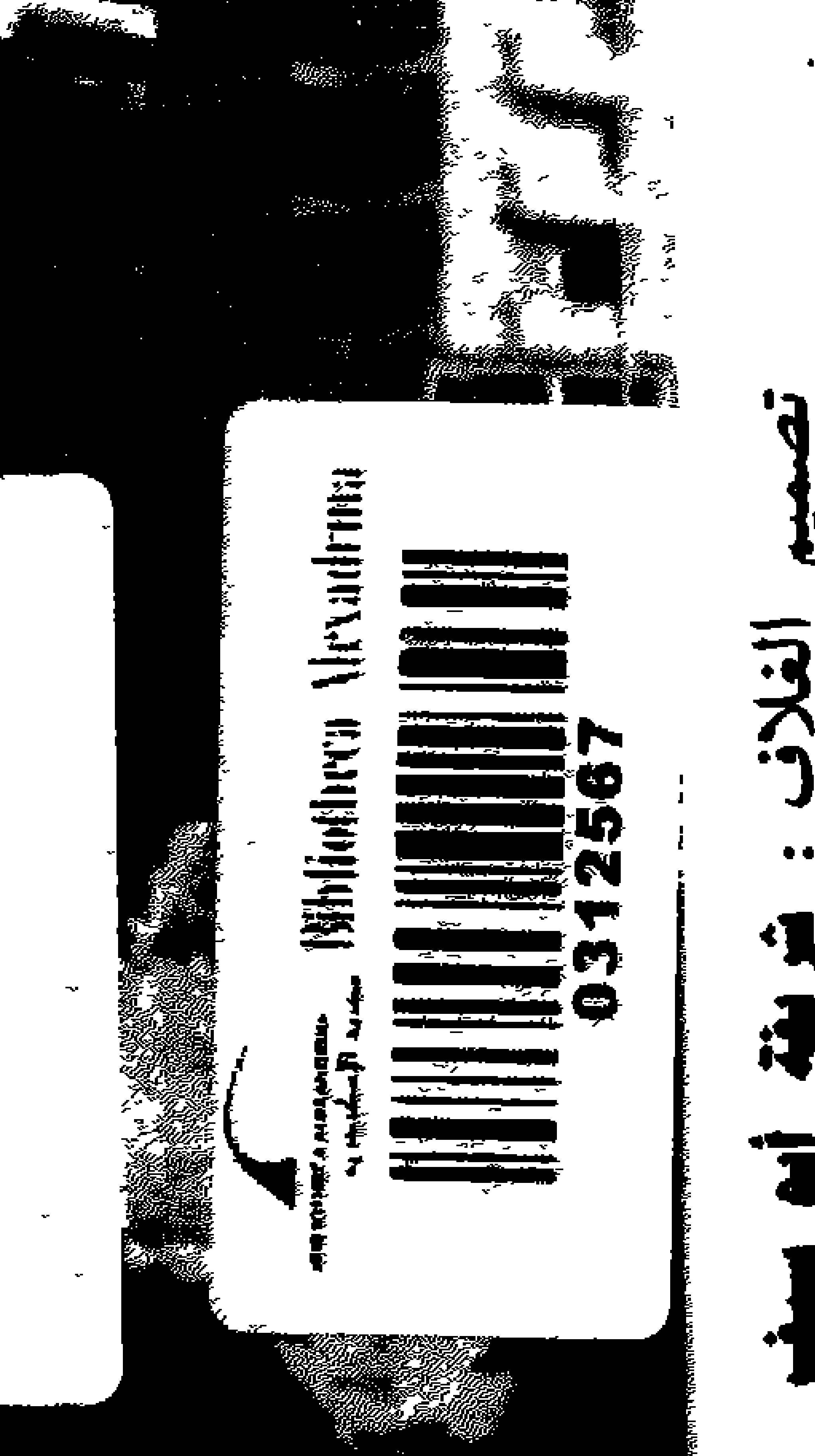
رقم الإيداع		١٩٩٣/٤٨٥٤
الترقيم الدولى	977-02-4094-X	ISBN

١/٩٢/٣٤٩
طبع بمطابع دار المعارف (ج.م.ع.)

كل تجعيدة فى وجه طاعن فى السن إشارة إلى سنين عديدة راح فيها أبناء النيل يشيدون الحضارة .

وكل انطلاقة من شاب أو فتاة تشير إلى الأمل فى المستقبل الذى أرسى ركائزه الآباء .

هذا الكتاب رحلة هادئة يطوف فيها المؤلف بك . . حول حضارة مصر المحروسة .



تصميم الغلاف : شريفة أبو سيف

